

القدس

مدينة الله...؟ أم مدينة داود...!

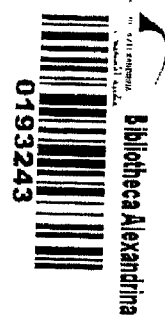
بقلم الأستاذ

الدكتور حسن ظاظا

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

مطبعة جامعة الاسكندرية

١٩٧٠



القدس

مدينة الله...؟ أم مدينة داود...!

بقلم الأستاذ

الدكتور حسن ظاظا

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

مطبعة جامعة الاسكندرية

١٩٧٠

من الحاضر إلى الماضي

لاسرائيل أسلوب لا يعوزه الدهاء في السياسة التي تنتهجها في مشكلة الشرق الأوسط ، وهو أسلوب تحاول به أن يطول بقاؤها بفلسطين ، في عالم يتميز بأن عمر الاستعمار فيه قصير ، وحياته في البلاد التي يتشبث بها رهينة مرة لا راحة فيها ولا اطمئنان . وأسلوبها هذا مبنى على «التعقيد» ، والانحراف بالمسائل عن الطريق الواضحة المستقيمة باثارة مشاكل جانبية مفاجئة ، من الأفضل لدى قادة الصهيونية الا ترتبط بفن تنسيق العلاقات الدولية ، والدخول اليها من أبوابها الواسعة ، بقدر ما ترتبط بغيبات مظلمة ، وأساطير متكررة في ثياب التاريخ ، و «ميتافزيقيات» غير انسانية ، ان لم تنجح في خداع العالم بصورة نهائية فانها ، على الأقل ، تجره في دوامتها السحرية مدة من الزمن تطول أو تقصر بحسب الظروف . واسرائيل تخترع هذه «العقد» وتفتعلها بتوقيت دقيق بحيث تراكم وتراكم حتى تصبح ملفات «مشكلة الشرق الأوسط» في مكاتب هيئة الأمم المتحدة ، وأرشفات وزارات الخارجية في العالم أشبه بمجلدات التلمود ، التي لا تدعك تنفذ من اعتراض الالتماع في اشكال ، أو تنزلق في شبهة ، أو تنساق إلى نقاش كلامي طويل ، ينتهي بأن تصرخ متسائلا وقد كادت اعصابك تنهار : والآن.. أين القول الفصل؟.. أين الحلال والحرام؟ وهيهات أن تجد جواباً ! وليس أشد ازعاجاً لكهنة السياسة الاسرائيلية في قديم الزمان وحديثه من «القول الفصل» ، ومن الحل العادل المنطقي الانساني المباشر ، وكلما ظهر في طريقها من يكشف لولبيتها ، وتعقيدها هذا للبسيط من الأمور ، مما لا يدع لها مجالاً للمغالطة والتهريج ، لجأت معه إلى الجريمة .. إلى القتل : هكذا كان موقفهم قديماً من نبيهم ارمياء ، ومن يوحنا المعمدان ، ومن عيسى المسيح ، وهكذا إلى أن نصل حديثاً إلى اغتيال اللورد موين وزير المستعمرات البريطاني أثناء الحرب العالمية الثانية ، والكونت برنادوت السكرتير العام لهيئة الأمم المتحدة ، وما لا يحصى غيرهم من ضحايا الظلاميات الاسرائيلية المطبقة .

وهناك «عقدة» ظل الاسرائيليون يدخرونها للوقت الذى يصل بهم الحرج فى ميدان السياسة الدولية إلى ذروته ، وهى القدس . فبدأ المشروع الصهيونى المعاصر نشاطه فى أواخر القرن الماضى ، والقائمون عليه محتاطون جداً فى لمس هذه العقدة ، حتى اضطروا طوال مدة مديدة إلى أن يتزودوا لها بوجهين يقولان كلامين مختلفين بحسب المستمعين .

الوجه الأول هو الوجه اليهودى القح الذى يتكلم إلى اليهود الاقحاح فلا يترك قسماً غليظاً ولا قولاً معسولاً فى الاستيلاء على القدس ، و «تطهيرها» من الاسلام والمسيحية الاقاله ، ولا يكاد ينعقد اجتماع صهيونى كبير أو صغير ، من اللقاء العابر المرتجل فى بعض الأعياد أو المناسبات ، إلى المؤتمرات الصهيونية العالمية ، حتى يطلق اسم «اورشليم» مرات ومرات ، وسط الحماس المتهوس الذى لا يعرف له رأساً من رجلين .. وأبسط ذلك وأقربه منالا هو الترميم بنص من المزامير (مزمور ١٣٧ / ٥ - ٦) يقول : «ان نسيتك يا اورشليم فلتنسى يمينى . ليلتصق لسانى بحنكى ان لم أذكرك ، ان لم أرفع اورشليم على قمة ابتهاجى» ويقال ان تيودور هرتسل - زعيم الصهيونية الحديثة - كان قد وافق على اقتراح السياسى البريطانى «تشميرلين» الكبير فى اعطاء اليهود وطناً قومياً فى أوغنده بوسط افريقيا ، ولكن غلاة الصهيونية ثاورا على زعيمهم ، واعتلوا على مساعده «ماكس نورداو» بالرصاص ، واتهموا «هرتسل» نفسه بالخيانة ، وعند اجتماع المؤتمر الصهيونى العالمى السادس بدأوا يهتفون ضده من القاعة حتى إذا ما بدأ يثشد «ان نسيتك يا اورشليم» .. نسوا هم كل شئ ، وصفا له الجوى ، وسلمت له الزعامة ، بعد أن سلمت لهذه الجماعة الهستيرية «مدينة داود» .

وأما الوجه الثانى ، فتلتفت به الصهيونية إلى الأمم الأخرى ، تلتفت لتقول لهم كلاماً معسولاً أيضاً عن «المدينة المتحف» ، «المدينة المقدسة» لكل الممال والأديان ، «مدينة الله» . وكانت اسرائيل بهذا الوجه تستجلبى رضا الرأى العام المسيحى فى أوروبا وأمريكا ، وتخذل الرأى العام الاسلامى فى افريقيا وآسيا ، وتهرب من نقمة العلمانية واللاعصرية فى العالم أجمع .

وهكذا جعلوا عاصمتهم أولاً «تل أبيب» لا «القدس» وقنعوا من ارضاء بسطاء اليهود في العالم ببناء «اروشليم جديدة» على أطراف المدينة التاريخية تتكون من بضعة أحياء إلى الغرب والشمال أشهرها «رحيبا» و«مخى يهودا» و «كرم ابراهام» ثم أضافوا إليها أحياء عربية اغتصبوها بالارهاب مثل «البقعة» و «القطمون» و «بيت صفافا» وغيرها . وجعلوا في حكومتهم وزارة خاصة اسمها «وزارة الشؤون الدينية» ، ورضوا بأن تبقى المدينة القديمة «القدس الشريف» بالمسجد الأقصى وكنيسة القيامة وغيرها من المعالم والمشاهد المسيحية والاسلامية المقدسة جزءاً من المملكة الأردنية يفصله عن اسرائيل سور معترف به كحدود دولية من هيئة الأمم المتحدة .

ثم خطت الصهيونية خطواتها الجريئة في حرب يونيه ١٩٦٧ فأزالت هذا السور واحتلت القدس التاريخية ضمن ما احتلت - وما تزال - من الأراضي العربية داخل حدود الأردن وسوريا والجمهورية العربية المتحدة ، وتسهرت فأعلنت «توحيد القدس» أى ضم القدس الشرقية - وهي المدينة العربية التاريخية - إلى «أورشليم الجديدة» ، وادخلها في مخطط «تهويد» معلوم مرسوم . ولكي يبتلع العالم كل هذه الملاحظات دون صياح كثير قسم قادة الصهيونية أنفسهم إلى «جوقات» كل منها يتجه بصوته جهة خاصة يلقي فيها بالبيانات والتصريحات المناسبة : «بن جوريون» و «موسى ديان» وبقية «الكورس القومي» يعلنون انه لا اسرائيل بدون القدس التاريخية، «مدينة داود»، وأن الحائط الدولى الفاصل بين القدس القديمة شرقاً والجديدة غرباً كان وصمة في جبين الشعب اليهودى ، وأن المدينة كلها يهودية مائة في المائة بماضيها ولا بد أن تصير كذلك في مستقبلها . وفي نفس الوقت يقف في الجهة الأخرى «الكورس الدبلوماسى» بقيادة «ابا ايبان» و «يغال آلون» ليؤكد أن القدس «مدينة الله» وأن المعالم المقدسة فيها لها حصانة تماوية لا يمكن المساس بها ، وأن المدينة المقدسة مفتوحة على مصراعها للناس جميعاً من كل الملل والنحل وأنها ستظل كذلك .

وترسب في الرأي العام العالمي ، في العقل الباطن للناس ، انطباعات هي وحدها التي أرادها اليهود ، أنهم أصحاب الحق الشرعي والتاريخي الأول في هذه المدينة ، وأنهم لا يتكلمون من مركز القوة فحسب ، بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ ، بل من سجلات التاريخ أيضاً ، وكاد العالم أن يتلع ما شاءت الصهيونية بدون صياح كثير .

ثم تشتد المقاومة الفلسطينية في كل مكان ، وتصمد الأمم العربية الواقفة على خط المواجهة ، ويطول صمودها بما يخيب ظن اسرائيل ، بل أنها لا تكفني بالدفاع المتكافئ عن مواقعها فتلقن القوات الاسرائيلية الضاربة ، كلما حدث اشتباك ، درساً في ضرورة التروى والتفكير الطويل قبل الدخول في اشتباكات أخرى ، وتخرج من جزع الهزيمة ومرارة الدفاع المستميت إلى امكانيات التخطيط للمستقبل ، ويبدأ ذلك بتنسيق كامل بين الجبهات الثلاث ، ثم بينها وبين قيادة الكفاح الفلسطيني المسلح ، على نحو يجعل الغلاة من قادة الصهيونية قلقين على المستقبل جداً . فالانتصار السهل في معركة محلية خاطفة ، قد حل محله خطر الحرب الشاملة إذا هم اصرروا على طلباتهم . والوقوف خلف المدافع عند خطوط وقف اطلاق النار سنين طويلة ، سبزه الصورة الرائعة التي رسمتها الدعاية الصهيونية للجيش الاسرائيلي الذي لا يغلب ، بين جماهير اليهود الطيبين البسطاء في العالم ، الذين يعيشون على رومانسية عسكرية حاملة تستمد عناصرها من قصة داود وتغلبه على العملاق جالوت ، هذا فضلاً عن أن وقوف السنين الطوال خلف المدافع سيحد أيضاً من الانتاج ، وسيصيب بالعمى والجرب مواسم الحج والسياحة ، وستطلب المليارات من الليرات الاسرائيلية ثمناً لهذا الترف الذي تتحاشاه أكبر الأمم وأغناها ، وسيترك لحلفاء اسرائيل والواقفين وراءها فرصة طويلة للتأمل والتفكير الهادىء في المصالح الحقيقية والدائمة لشعوبهم ، ستنتهي غالباً بانفضاضهم عنها كلياً أو جزئياً . وقد بدأ ذلك فعلاً بتخلي فرنسا عن تبنيها للصهيونية ، وأعقب ذلك انكماشاً من جانب إنجلترا وإيطاليا وتركيا والارجنتين وغيرها من دول العالم في موقفها من الصهيونية .

في وسط هذا الدخان الكثيف ، يشب حريق المسجد الأقصى ، ولأمر ما تحرص اسرائيل على أن تعلن منذ بداية التحقيق أن المسئول عن هذه الجريمة «مايكل روهين» ليس يهودياً ولا اسرائيلياً بل شاب استرالى من اتباع طائفة مسيحية متطرفة ، ولكن العالم لا يتلعب ذلك بسهولة ، ويبدأ القلق ، لا بين المسلمين وحدهم ولكن بين فخاهير العالم المسيحي أيضاً . وتذهب اسرائيل في الاعتذار عن أقل ما يمكن اتهامها به وهو الالهال في القيام بمسئولياتها عن أمن الاماكن المقدسة وسلامتها كل مذهب . ولكن حججها تبدو واهية هزيلة لا تفلح في ازالة القلق الشديد من نفوس غير اليهود في الشرق والغرب . ويقوم وزير خارجيتها «ابا ايبان» بجولاته التقليدية ، لا يألو فيها جهداً ، حتى يصل إلى الفاتيكان وإلى لقاء قداسة البابا بولس السادس نفسه ، ولكن المقابلة «التاريخية» لا تأتي الا بنتائج «سلبية» . وتعلن رئيسة الوزراء السيدة «جولدا ماير» عن عزم الحكومة الاسرائيلية على ترميم المسجد الأقصى على نفقتها - كمجرد عملية تخريب ، ناجحة بكل أسف ، لمؤتمر القمة الاسلامى .

كل هذا «والعقل الباطن» للعالم كله ما يزال ينتقع في تاريخ فولكلورى موداه كما قلنا أن القدس «مدينة داود» وأن ما يحدث فيها الآن - على بشاعته - هو صراع بين «ظواهر» طارئة وبين تاريخ قديم يريد أن يعيد نفسه . فلنعد إذن إلى التاريخ ولنتركه يقول ما عنده باختصار .

اورشليم (القدس) قبل العبريين

أقدم النقوش التي ورد فيها ذكر هذه المدينة موجودة عندنا في المتحف المصرى بالقاهرة ، في مجموعة اللوحات المكتوبة بالخط المسارى واللغة البابلية (لغة العراق القديم) تتخللها شروح باللغة الكنعانية (لغة فلسطين القديمة) . وهذه النقوش تسمى «لوحات تل العمارنة» وقد عثر عليها في أوائل القرن العشرين في هذه المنطقة من محافظة أسيوط ، وهى وثائق دبلوماسية ترجع إلى عهد الفرعون أمنوفيس الثالث (من ١٤١١ إلى ١٣٧٥ قبل الميلاد) وابنه اخناتون (١٣٧٥ - ١٣٥٠ ق . م) .

تسمى أورشليم (القدس) في هذه النقوش «اوروسالم» . ففي رسالة كتبها «عبدحييا» إلى أمينوفيس الثالث نجد أن الأول هو حاكم القدس «اوروسالم» من قبل فرعون ، وأنه يستنجد به بمدد عسكري لصد غارات شراذم من العجر الرحل اسمهم «حييرو» اتفق الباحثون على أنهم «العبريون» كما ذكر ذلك الاثرى «بندلبورى» الذى أشرف زمناً طويلاً على الحفائر في هذه المنطقة وألف فيها كتابه المشهور «حفائر تل العمارنة» . ويقول المؤلف نفسه ان معبد «آتون» في تل العمارنة بخطته المعمارية المتميزة ، وبالخلفية الدينية التى جعلته قبلة للناس كافة هو الذى اهتم ببناء المعابد في بلاد النوبة والآسيويين في اورشليم فكرة «المعبد المركزى» أو «المعبد القبلة» الذى يتجه اليه الناس اليه الناس جميعاً في صلاتهم ويأتون اليه في حجهم .

نجد اسم اورشليم بعد هذا التاريخ يتكرر في لغات أخرى ، ففي نقوش الامبراطور الاشورى سنحاريب (حول ٧٠٠ ق . م) يرد اسمها هكذا «اوروسليسو» وفي العبرية «يروشاليم» وفي النقوش اليونانية من عهد الاسكندر الأكبر (حوالى ٣٣٠ ق . م .) وردت بلفظ «هيروسوليا» أو «سوليا» باختصار ، وانتشر اسمها من الكتاب المقدس في جميع لغات العالم تقريباً .

أما اسم «القدس» فلا بد أنه رافق المدينة منذ بداية تاريخها ، أى منذ ما قبل العبرين عندما أقيمت فيها لأول مرة أماكن مقدسة خاصة ببعض العبادات القديمة ، وعلى أية حال فان المؤرخ اليونانى هيرودوت (٤٨٤ - ٤٢٥ ق . م .) لم يذكر في تاريخه المشهور اسم اورشليم ولكنه ذكر مدينة كبيرة في الجزء «الفلسطينى» من الشام وسمها (قديتس) مرتين في الجزء الثانى والثالث من تاريخه . ويقول المستشرق اليهودى الفرنسى «سالومون مونك» فى كتابه «فلسطين» ان هذا الاسم على الأرجح هو «القدس» محرفاً فى اليونانية عن النطق الارامى «قديشتا» . وحتى اليهود فى الكتاب المقدس قد اطلقوا عليها أحياناً اسم «مدينة القدس» (اشعيا ٤٨/٢ ، نحemia ١١/١) و «جبل القدس» (اشعيا ٢٧/١٣) كما سميت «مدينة الله» (المزامير ٤٨/١) «مدينة الحق» (زكريا ٣/٨) .

واسم «اورشليم» ليس عبرياً أصيلاً ، فقد كانت تحمل هذا الاسم قبل دخول العبريين اليها بشهادة نص تل العمارنة ، وبدليل أن اليهود وجدوا صعوبة في كتابة اسمها باللغة العبرية «يروشاليم» فهذه الياء الواقعة قبل الميم الأخيرة لم تكن تثبت في الكتابة العبرية ، وقد كتبت بدونها في اسفار العهد القديم ٦٥٦ مرة وكتبت بها ست مرات فقط ، ولذلك نص علماء التلمود على وجوب كتابتها بلاياء (التوسفتا ، كتاب الصوم (تعنيت) ٥/١٦) .

أما معنى «اورشليم» فمختلف فيه أيضاً ، وارجح الأراء من الناحية العلمية انها مركبة من «أور» بمعنى موضع أو مدينة و «شلم» وهو اسم اله وثني لسكان فلسطين الأصليين هو «إله السلام» – بالسخرية التاريخ ! فالمدينة اذن كانت مكرسة لاله السلام حتى وصل العبريون . وهناك من يقول ان كلمة «اور» معناها الميراث ، فيكون «اورشليم» بمعنى ميراث السلام . أما أحبار اليهود فيدعون أن سام بن نوح قد سماها «شلم» أي السلام وان – ابراهيم الخليل قد سماها «يرأه» وهي بمعنى الخوف باللغة العبرية فقرر الله أن يسميها بالاسمين جميعاً «يرأه – شلم» أي «اورشليم» بمعنى الخوف والسلام (المدراش – الشرح الكبير على سفر التكوين «بريشيت ربا – ٥٧) وبنوا على هذه التخریجات الفولكلورية عقائد رهيبة حول السلام المتولد عن الرعب . وقيل أيضاً أن «يرو» يمكن أن تكون في اللغات السامية بمعنى «اله»^١ ويكون اسم المدينة بكل ساطة «اله السلام» .

ولو توفرت الأدلة على أن سام بن نوح هو الذي سمي المدينة باسمها لوافقنا احبار اليهود على أن المدينة نفسها ترجع إلى عهد سيدنا نوح ، ولكن لم يقل أحد غيرهم بذلك ، حتى التوراة نفسها ، فانها تتحدث عن «اورشليم» لأول مرة في زمن ابراهيم (حوالي سنة ١٩٠٠ ق . م .) وكان اسمها «شاليم» فقط ، وكان ملكها من سكان فلسطين الاصليين ، ويبدو من السياق أنه كان يحكم حكماً دينياً ، تقول التوراة (سفر التكوين ١٤/١٨) «وملكيصدق ملك شاليم أخرج خبزاً ونيبداً ، وكان كاهناً لله العلي ، وباركه وقال :»

مبارك ابرام من الله العلي مالك السماوات والأرض» . فاورشليم (القدس) كانت مدينة مباركة لله العلي من قبل داود بل من قبل ابراهيم أيضاً .

وعلى عهد يوشع بن نون خليفة موسى (حوالي ١٤٥٠ ق . م .) كان العبريون قد أصبحوا بعشائهم التي تهدد أمن المدن الفلسطينية خطراً بحسب حسابيه ، ويؤكد ذلك نص تل العمارنة الذي أشرنا اليه . لذلك نجد تحالفاً يعقد بين أمراء الفلسطينيين على أثر انتصار يوشع بن نون في أريحا وعاي وجبعون ، (يوشع ٣/١٠ - ٤) «فارسل أدونيصدق ملك اورشليم إلى هوهام ملك حبرون (الخليل) ، وفرآم ملك يرموت ، ويافع ملك لكيش ، ودبير ملك عجلون» . ولكن يوشع بن نون ينشر الرهبة في كل فلسطين فتخضع له بعض البلاد ويحاربه البعض الآخر ، ويصالحه فريق من «الخائفين» على امتيازات معينة يتنازلون عنها للعبريين . وكانت «اورشليم» من المدن الفلسطينية التي قاومت الغزو قروناً طويلة . فثلاثا نجد يوشع بن نون نفسه يجعلها في نصيب قبيلتي بنيامين ويهيدا من أسباط بني اسرائيل ، ولكنهما لم يستطيعا - ولمدة طويلة جداً - طرد سكانها الأصليين «اليبوسيين» وهم إحدى القبائل الفلسطينية القديمة ، (يوشع ٦٣/١٥) : «وأما اليبوسيون الساكنون في اورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في اورشليم الى هذا اليوم» . والمقصود اليوم الذي يروى فيه الراوية هذه الوقائع عن يوشع وبعد وفاته بمدة علمها عند الله . وبعد موت يوشع بن نون أعاد سبط يهوذا الكرة على اورشليم ، «وحارب بنو يهوذا اورشليم وأخذوها وضربوها بحد السيف وأشعلوا المدينة بالنار» ، سفر القضاة ٨/١) . أما سبط بنيامين فانهم فشلوا كذلك في طرد اليبوسيين وسكنوا معهم «إلى هذا اليوم» (قضاة ٢١/١) .

لذلك بقيت اورشليم تسمى «يبوس» أو «مدينة اليبوسيين» كما جاء في سفر القضاة (١٩) ، وفي هذا الموضع نجد نصاً يستحق الانتباه ، حين يقول في سياق القصة التي يرويها : ... «وفيما هم عند يبوس ، وقد انحدر النهار جداً ، قال الغلام لسيدة : تعال نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت

فيها . فقال له سيده : لا نميل إلى مدينة غريبة حيث لا أحد من بني اسرائيل هنا» .

وسرى ان المدينة المقدسة ظلت إلى عهد داود لليوسيين ، سكانها الأصليين من شعب فلسطين . ومعروف أن داود عاش حوالي سنة ألف قبل الميلاد ، وبالتالي ظلت مدينة «السلام» من أول ما لقبناها في النزرة على أيام ابراهيم إلى تلك الفترة — نحو ألف سنة — تقاوم التسلسل العبرى . والمطامع اليهودية فلا ينال الاسرائيليون منها الا بالتمخرب والاحراق حيناً أو بالمساكنة والتعايش السلمى أحياناً .

ومع داود فقط تبدأ «عقدة أورشلیم» مدينة الله ومدينة السلام ومدينة اليوسيين الفلسطينيين منذ ... منذ ما قبل التاريخ كما أثبتت ذلك أحدث الحفائر التي أجريت في المنطقة . ومن المستحسن قبل أن نخطو الخطوات الأولى نحو «أورشليم اليهود» أن نتصور بما يمكن من ايجاز والوضوح طبيعة اقليم القدس وموقعها .

تقع القدس على خط عرض ٣١° ٤٦' - ٤٥° شمال خط الاستواء ، وعلى خط طول ٣٥° ١٣' - ٢٥° شرق جرينتش ، وهي هضبة غير مستوية تماماً يتراوح ارتفاعها بين ٢١٣٠ ، ٢٤٦٩ قدماً . وجوها قارى صحراوى إلى حد كبير ، فالحرارة فيها قد تتجاوز ٣٠° صيفاً وقد تنزل إلى خمس درجات تحت الصفر شتاء ، كما أن التفاوت في الحرارة كبير بين النهار والليل ، ومطرها شتوى متوسط ، ورطوبتها متوسطة أيضاً ، ويندر بها الثلج . وليس بها أنهار ، وانما تحيط بها عيون كثيرة تتفاوت في غزارة الماء وصلاحيته للشرب ، وتندفع من بعض هذه العيون جداول مؤقتة بهطول الأمطار . وكانت المدينة إلى عهد ليس بالبعيد تعتمد أساساً على تجميع مياه الأمطار في صهاريج وآبار أعدت لهذا الغرض ، وأعلى مرتفعاتها يوجد على حافتها الشرقية والجنوبية الغربية والشمالية ، ولذلك اعتبرت منذ القدم موقعاً استراتيجياً قوياً جداً واشتهرت بأنها لا تظهر عند الزحف عليها من بعد ،

بينما تستطيع حاميتها أن تكشف تحركات المهاجمين لها وهم ما يزالون على مسافة طويلة .

وأهم جبالها هي :

١ - جبل الزيتون :

وهو المواجه لأسوار الحرم من الجهة الشرقية ، يفصله عنه واد عميق سريع الانحدار هو «وادي قدرون»، وامتدادها من الجنوب إلى الشمال . وهو من الوجهة التاريخية من أهم الجبال المحيطة بالقدس ، والتلمود يسميه «جبل المسح» أى جبل التتويج ، لأنهم يأخذون من زيتونه الزيت المقدس الذى يستعمل فى تتويج ملوكهم ، وعليه كانت تحرق بقرة القربان الحمراء (فى التلمود ، وهى فى القرآن «صفراء فاقع لونها») ، وكانوا يستخدمون الرماد المتخالف عن احراقها فى تطهير الهيكل واعادة تكريسه إذا دنس ، وهى عادة وثنية منتشرة فى هذه المنطقة قبل نزول الديانات السماوية . وفى أسفل هذا الجبل توجد حديقة المعصرة «جتسانى» التى اكتسبت ذكريات قدسية لدى المسيحيين من صلاة يسوع عندها وهو فى الزرع الأخير . وفى أعلاه مغارة القى فيها المسيح بعض تعائمه ، والتقى بحوارييه قبل صعوده إلى السماء . وعليه بكى المسيح على «أورشليم» ، وحياه المؤمنون به بالأغصان الخضراء بوم أحد السعف الذى يتقدم الفصح . والعرب يسمونه اليوم «جبل الطور» .

٢ - جبل بطن هوا :

وهو امتداد جبل الزيتون فى الزاوية الجنوبية الشرقية للقدس يفصله عنها «وادي سلوان» الذى يتصل فى هذه النقطة نفسها بوادي قدرون . ويسميه اليهود «هارهامشحيث» أى «الجبل الفاضح» ، ويزعمون أن سليمان أقام عليه للمعابد الوثنية لنسائه الاجنبيات ، وأنه هو المقصود فى سفر الملوك الأول ١١/١ - ٨ : «وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون، موآبيات وعمونيات ، وأدوميات ، وصيدونيات ، وحيثيات ، من الأمم

الذين قال عنهم الرب لبنى اسرائيل لا تدخلون اليهم وهم لا يدخلون اليكم ، لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم . فالتصق سليمان بهؤلاء بالحب ، وكانت له سبعة من النساء الحرائر وثلثمائة من السرارى . فأمالت نساؤه قلبه ، وكان فى زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملىن قلبه وراء آلهة أخرى ، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب الهه كقلب داود أبيه . فذهب سليمان وراء عشتروت الالهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين ، وعمل سليمان الشر فى عينى الرب ، ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه . حينئذ بنى سليمان معبداً لكوش ، رجس المؤابيين ، على الجبل الذى تجاه اورشليم . ولمولك رجس بنى عمون . وهكذا فعل لجميع نساؤه الأجنبية اللواتى كن يوقدن ويدبحن لآلهتهن» .

٣ - جبل صهيون :

فى الجنوب الغربى للقدس القديمة ، وكانت عليه قلعة اليبوسيين التى انزعها داود منهم بالحرب ، ثم نقل اليها قاعدة حكمه التى كانت حتى السنة الثامنة لتولية الملك فى جبل «جرزيم» بالقرب من نابلس شمالاً . وسماه منذ هذا الوقت «مدينة داود» . وكان يفصل جبل صهيون قديماً عن هضبة القدس جبل أقل ارتفاعاً يمتد منحنيّاً على شكل هلال الى الشمال الشرقى من صهيون ، وكان يمر بين الجبلين واد ضيق كان يسمى حسب قول المؤرخ اليهودى يوسفوس (من القرن الأول الميلادى) «وادي الجبانة» التيروبويون» أى صانعى الجينة، وكان يمتد من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى حيث يتصل بوادى سلوان، الذى يتصل بدوره بوادى قدرون شرقاً . وهذا الجبل الصغير لم يرد له اسم خاص فى الكتاب المقدس ، ولكن فى عهد الملك اليونانى السلوقى انطيوخوس الرابع (ايفانوس) الذى حكم الشام من ١٧٥ الى ١٦٤ ق . م . ثار اليهود على حكمه فحضر وقمع ثورتهم وبنى على هذا الجبل الصغير المواجه للقدس من الغرب قلعة سماها «أكرا» ومن ثم أصبح هذا الجبل يسمى :

٤ - جبل اكر

٥ - جبل موريا

أو جبل بيت المقدس ، أو بالاختصار «الحرم» حيث المسجد الأقصى وقد ورد اسم «موريا» في التوراة (التكوين ٢٢/٢) في قصة الذبيح الذي أمر الله ابراهيم أن يقدمه قرباناً وحدد له هذا الموضع ليذبح فيه ابنه اسحق والموضع ما يزال حتى الآن محل خلاف كبير في هذه القضية بين الباحثين وبين اليهود أنفسهم ، فاليهود السامرة يرون أن الحادثة كانت على جبل جزيم القريب من نابلس ، حيث قام أقدم هيكل لبني اسرائيل وهو الذي جاء داود فأبطله وعطله بعد أن نقل عاصمته إلى القدس ، أما طوائف اليهود الأخرى فتزعم أن وقفة ابراهيم بابنه كانت على هذا الجبل بالقدس ، وعلى الصخرة الشريفة بالذات . وأكثر المسلمين يعتقدون أنه اسماعيل .

٦ - جبل رأس المشارف ، سكوبوس :

. ويسميه التلمود «جبل المراقبين» (هارهاصوفيم) وهو امتداد لجبل الزيتون من الشمال الشرقي إلى الشمال ، يفصل بينهما منخفض يسمى «عقبة الصوان» .

٧ - ويبدو أنه كان في قديم الزمان جبل يقوم بين جبل سكوبوالس وبين هضبة الحرم «جبل موريا» ذكره يوسفوس في كتابه (حرب اليهود - الجزء الأول ، الباب الخامس) وسماه «بزييتا» أى «بيت الزيتون» أو «منبت الزيتون» . ولما تولى «اجريبا الأول» (٤١ - ٤٤ ميلادية) وهو من أسرة هيرودس التي اهتمت كثيراً بتجميل القدس كما سترى ، ردم ما بين «جبل موريا» وجبل «بزييتا» ومد أسوار المدينة إلى ما وراء هذا الجبل الأخير بحيث أصبح حياً من أحياء القدس كان يسمى «المدينة الجديدة» .

وعلى ذكر هذا الردم بين جبلين فقد حدث في القدس نفسها قبل ذلك ، في حكم الأمير اليهودي المكابي شمعون من أسرة الحشمونيين التي كانت تحكم

فلسطين حكماً دينياً من قبل اليونان . نقول في هذا الوقت (سنة ١٤٠ ق . م.)
 قام شمعون بردم ما بين تل «اكرا» حيث قلعة انطيوخوس السلوقي وبين جبل
 الحرم «موريا» بحيث صاراً شيئاً واحداً أيضاً .

وهكذا إذا أخرجنا جبل الزيتون وامتداده جنوباً وشمالاً ، لانفصاله
 التام عن القدس بالمنخفضات والوديان الشرقية والجنوبية والجنوبية الشرقية
 وأخذنا في الاعتبار أن جبل الحرم «موريا» أصبح يضم جبل «بزيثا» من
 الشمال الغربي ، وجبل «اكرا» من الجنوب الشرقي ، أمكننا أن نقول
 أن المدينة كانت تقوم بهذا الشكل على مرتفعين اثنين هما هضبة «الحرم» ، وقبالتها
 في الجنوب الشرقي «جبل صهيون» يفصل بينهما جزء من وادي الجبانه
 «تروبوبون» ، وهذا ما لاحظته المؤرخ اللاتيني تاسيت في كتابه (الجزء
 الخامس) .

ويذكر يوسفوس أيضاً أنه كانت هناك قنطرة تربط هضبة الحرم «جبل
 موريا» بالزاوية الشمالية الشرقية لجبل صهيون حيث كان يوجد كورنيش
 يقال له باليونانية (كسيسنوس) وهذا العمل يرجع أيضاً إلى أمراء الحشمونيين
 الذين حكموا باسم اليونان في فلسطين ، فهم الذين ردموا جزءاً من الوادي
 وبنوا قنطرة قائمة على عقود مقوسة توصل من «مدينة داود» على جبل صهيون
 إلى «الحرم» على جبل موريا وهو الطريق الذي يمتد الآن من الحرم إلى باب
 السلسلة .

ولا نستطيع وقد أوضحنا مواقع جبال القدس وما طرأ عليها الآن نشير
 إلى المنخفضات أو الوديان الفاصلة بينها مجتمعة بعد أن سبقت الإشارة لبعضها
 في مواقعها .

١ - وادي قدرون شرقاً :

وهو اسم جدول الماء الذي يجري في قاعه عندما يسقط المطر ، وقد

اشتهر باسم «وادي يهوشافاط» (سفر يوثيل ٣/٢، ١٢) وطوله نحو كيلو مترين يفصل السور الشرقي للقدس عن جبل الزيتون ، ويعتقد كثير من الطوائف المسيحية واليهودية أن الحشر يوم القيامة سيكون في هذا الوادي اعتماداً على قول النبي يوثيل : «أحمل كل الأمم وانزلهم إلى وادي يهوشافاط وأحاكمهم هناك» ، وفي الموضوع الثاني الذي أشرنا إليه يقول النبي يوثيل «تنهض الأمم وتصعد إلى وادي يهوشافاط لاني هناك أجلس لأحاكم جميع الأمم من كل ناحية» .

٢ - وادي سلوان جنوباً :

وهو اسم النبع الموجود في هذا الوادي ، والذي ينساب منه مجرى ماء اسمه جيحون ، أما الوادي نفسه فكان يحمل قبل مجي العبريين اسم قبيلة «هم» بتشديد النون ، فكان يقال «وادي هم» أو «وادي بني هم» وكلمة الوادي كانت في لغات سامية قديمة متعددة هي كلمة «جي» ، فكان يقال «جيهم» أي هذا الوادي نفسه ، وكانت هذه القبيلة ، في الوثاية البعيدة في القدم ، تقدم الضحايا البشرية إلى الهيا «مولك» بذبحها والقائها في النار ، ومن هذه الصورة أطلق اسم «جهنم» على مكان العذاب في الآخرة للشبه القائم بينهما . ووادي «هم» أو «سلوان» أو «جيحون» هذا يمتد على طول جنوبي القدس حتى الطرف الجنوبي الشرقي من جبل صهيون . وسمى هذا الوادي بين العرب «حقل الدماء» .

٣ - وادي الجبانه أو «التروبيون» :

يفصل جبل صهيون عن غرب القدس ويبدأ حيث ينتهي وادي سلوان وكان يسمى في الجزء الجنوبي الغربي من القدس «وادي الزبابة» أو «وادي الدم» أو «وادي القمامات» ، وقد أشرنا إلى ردم جزء منه في أعمال توسيع لجبل صهيون وللحرم المقدس الواقع على جبل «موريا» الذي هو هضبة الحرم الشريف .

٤ - وادى الأرواح :

«رفائيم» بالعبرية ، أو العفاريت ، يدور حول غرب جبل صهيون وأقصى الجنوب ، وبه مدافن للموتى .

داود ... ومدينته

قلنا أن القدس ظلت فلسطينية في أيدي اليوسيين إلى السنة الثامنة من حكم داود . كان داود من الجنوب ، من صحراء النقب ، حيث اختارت قبيلة - سبط يهوذا - تلك الجهة مسرحاً لحياتها البدوية الرعوية . ثم انه انتقل إلى الشمال حيث كان نبي بني اسرائيل «صموئيل» قد توج أول ملك على كل الشعب هو «شاول» ، وكان داود قد الحق ببلاد شاعول . وفي هذه الآونة كان سكان البلاد الأصليين «الفلسطينيين» يريدون التخلص من الوجود «العبري» في بلادهم ، وكانت الحرب سجلاً بينهم وبين الاسرائيليين وبرز من الفلسطينيين بطل عملاق مخيف هو «جالوت» استطاع داود أن يقتله بحجر أطلقه من مقلع ، ثم قطع رأسه بعد ذلك ، وأخذها ليفخر بانتصاره في الجنوب . ومر بها على أورشليم . ومنذ هذا الوقت بدأت شعبية داود في الاتساع حتى بات الملك شاعول يخمد عليه ويدبر الأمر لاغتياله دون جدوى وأخيراً تعرض شاعول لهماثم ساحقة ومتعددة من «الفلسطينيين» انتهت بأن انتحر على أحد الجبال على أتر معركة فاشلة . وأصبح داود بعده ملكاً . فأراد أن يترك الشمال إلى نقطة حصينة أكثر توسطاً من حيث الموقع ، فوجد مطلبه هذا في «مدينة اليوسيين» اورشليم . فهي قريبة من ديار سبط يهوذا وهم عشيرة داود ، وهي وعرة المسالك للقادم من الأردن أو من البحر أو من الشمال على السواء ، وهي حصينة غير مكشوفة للغزاة ، ثم انها بعد كل هذا في وسط عشائر فلسطينية قديمة يبدو أنهم كانوا أكثر ميلاً إلى المسألة من أهل الشمال .

بدأ داود بالاستيلاء على جبل صهيون ، وكانت فيه قلعة أمامية لليوسيين يدافعون منها عن القدس ، وكانوا يسمون جبل صهيون بالمنشآت القائمة

عليه «المدينة الفوقانية» . بالنسبة لهضبة الحرم (جبل موريا) التي كانوا يسمونها «المدينة التحتانية» . استولى داود إذن على «المدينة الفوقانية» وحصنها وجعلها قاعدة لحكمه . ولما كانت أسرته هي سبط يهوذا ، فمنذ هذا الوقت بدأ العبريون أو الاسرائيليون يسمون باليهود أيضاً ، ولما كان داود ، على طريقة امراء بني اسرائيل وروؤسائهم في العصور القديمة ، وعلى طريقة الكثير من الحكام القدماء . يستمدون سلطتهم من «الله» ، فقد جعل من صهيون مقر السلطة الدينية والسياسية والعسكرية جميعاً . ولم يجد غلاة المتعصبين من اليهود في العصر الحديث تسمية أكثر سحراً في آذان فقراء اليهود وبسطائهم من «الصهيونية» وما تقترن به من قوة داود وسدة شكيمته وأبهة سليمان وبهاء عظمنه وفخامته على عرشه الاسطوري العجيب: فاخثاروها اسماً وشعاراً .

ظل داود يضغظ على اليبوسيين ، ويضايقهم في جبلهم (موريا) ويريهم صنوف الاذلال . وهم يرحلون تاركين له ديارهم حتى لم يبق الا مسطح القمة ، فكان المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، ملكاً لليوسى «آرونا» يتخذة جرنًا ومربضًا لماشيته . فاشتراه منه داود بما فيه من المواشى . وقالوا في عنعنات شمولية يهودية ، لا يقوم عليها أى دليل ، ان داود جعل من الصخرة انى على الهضبة مذبحاً للرب . وصاغوا حول ذلك أساطير لا تكاد تاتهى حتى قالت بعض مصوص التلمود (توسفتا - يوما / ٨٤ ، ٨) ان الله تعالى خلق الأرض ابتداء من هذه الصخرة « وقال أحد أحبارهم وهو اليعارر البابل «ان الصخرة هي أصل خلق الأرض ، وان صهيون هو سره العالم ، وهو كامل الجمال والانباء» (التلمود البابل - يوما / ٥٤) . وجاء في كتاب «زوهر» وهو من كتب التصوف اليهودى المشهورة « ان يعقوب نام على الصخرة وهو منطلق من بيت أبيه أضحق » بينما المعروف أنه نام في «بيت ايل» قرب نابلس . ولكن هذا التحريف يهدف إلى نقل قدسية «بيت ايل» المجاورة لنابلس . والتي ظل اليهود السامريون على وفائهم لها كقبلة ليعقوب ، إلى أورشليم .

والحق أننا لا ندرى أية صخرة يعنى اليهود ، فالتلمود يذكر أن الصخرة التي يقدسونها ترتفع عن مستوى سطح الأرض ثلاثة أصابع (التلمود - يوما/ ٨٥ - ٣ ، ٤ . توسفتنا ٦/٨٣ وموسى بن ميمون في كتابه «طقوس يوم الغفران») بينما الصخرة الموجودة حالياً ترتفع عن مستوى سطح الأرض بنحو متر كامل ، ومحيطها يناهز العشرة أمتار ، وتحته فجوة هي بقية مغارة قديمة عمقها أكثر من متر ونصف ، تبدو الصخرة فوقها وكأنها معلقة بين السماء والأرض ، وبين الصخرة وقاع المغارة دعامة من الخشب حتى لا تنهار .

ومن الذين شكوا في أن تكون الصخرة الشريفة هي الصخرة المعنية في التلمود ، الباحث الألماني «شيك» في أوائل هذا القرن ، فهو يقول ان الصخرة الحالية ربما كانت على أكثر تقدير إحدى ركائز المذبح الخاص بالقرابين فقط . ولم تكن في يوم ما داخلة «ضمن» قدس الاقداس» . أما صخرة اليهود التي يسمونها بعد أساطير التلمود التي أشرنا اليها «ابن هاشتيا» - أي حجر الاساس - فالله أعلم ماذا صنع بها بختنصر وانطيوخوس ايرفانوس وتيتوس وفسبازيان وهديان والصلبيون وغيرهم ممن دمروا اورشليم مراراً وتكراراً تدميراً كاملاً .

والعجيب في أمر الباحثين اليهود ، وفي مقدمتهم دوائر المعارف العبرية المختلفة وما كتبه من المؤلفات عن القدس ، أنهم إذ يؤكدون بدون أية حجة أن الصخرة الشريفة هي «حجر الأساس» المذكور في التلمود ، ينفون نفيًا باتاً أن تكون كنيسة القيامة بالقدس ذات علاقة أيا كانت بمجسد المسيح عليه السلام ، فدائرة المعارف الاسرائيلية العبرية المنشورة في نيويورك سنة ١٩١١ تقول في هذا الصدد أن دفن الموتى داخل أسوار القدس كان لا وجود له اطلاقاً ، وان أقرب المقابر إلى أسوار القدس هي مقابر «سامبوسكي» عند قدم جبل صهيون من الطرف الجنوبي الشرقي خارج السور مباشرة ، والمقابر المذكورة تحمل اسم العائلة التي بنت فيها مدفنًا كبيراً في العصر الحديث ، وقد عثر فيها على مقابر قديمة أيضاً ، وأضاف كاتب البحث

إلى ذلك أنه طيأة عهد الهيكل الثانى» (أى من القرن الخامس قبل الميلاد إلى سنة سبعين ميلادية) لم يدفن أحد داخل أسوار المدينة المقدسة ، وبناء على ما ذكر يكون مستحيلاً فى رأيه أن يكون الجسد المصابوب قد دفن فى هذه البقعة التى هى من صميم أورشليم وفى داخل أسوارها .

ولا نريد أن نناقش الأمر «بزنطياً» وإنما نشير إلى أن المسيح وأتباعه لم يتمسكوا من الشريعة القديمة الا بالناموس الموسوى والأوامر والنواهي التى أبلغها الانبياء ، أما «التلموديات» التى لا تعد ولا تحصى فقد كانت رسالة المسيح فى جوهرها ومنطوقها تنادى وتجاهر باباطها وتطهير العقول منها ، حتى لا يخضع الشعب اليهودى خضوعاً أعمى لظلامها المطبق ، الذى تفرضه السلطة الكهنوتية اليهودية على الشعب البسيط الخدوع المحروم من النور الحق وما دام الأمر كذلك ، فما الذى يفرض على أتباع المسيح فى عشية الصلب ، وأيدى كهنة التلمود ما تزال مخضبة بدمائه ، أن يحترموا عرفاً لا يستند إلى أمر أو نهي من الله ؟ ثم ان الحفائر المختلفة ما تزال كل يوم تكشف عن هياكل بلا يحصى عددهم وجدت عظامهم داخل الأسوار .

مدينة داود ... بعد داود

ورث سليمان داود ، وكان ملكاً يحب الفخامة ويميل إلى حل مشاكل السياسة والاقتصاد حلولاً دبلوماسية لا يلجأ فيها إلى قوة السلاح ، فصاهر جيرانه مبتدئاً بالقصر الفرعونى فى مصر اذ تزوج ابنة فرعون ، ثم غيرها وغيرها من بنات الملوك والحكام المحيطين بمملكته الصغيرة . وحاول أن يجعل عاصمة ملكه - أورشليم - لا تقل عظمة وعمرانا عن العواصم الكبرى فى الشرق فى زمانه ، فبدأ بتشيد سور فاخر حول المدينة ، ثم أخذ فى بناء المعبد الكبير - الهيكل - الذى كان أبوه داود قد بدأه قبل موته ، ومع ذلك فان الاخبار الاسطورية عن فخامة هذا الهيكل وضخامته لا يمكن أن تكون قد نجت من شطحات الخيال اليهودى الخالم فجاءتنا مبالغاً فيها أشد المبالغة . وهكذا يقول الكاتب اليهودى الأمريكى لويس براون فى كتابه المسى

«حياة اليهود» ان انجازات سليمان في اورشليم ، وفي مقدمتها قصره الملكي كانت تبدو في عيون اليهود السذج من رعيته فخمة فخامة تفوق التصور . مع أنها لو قورنت بالقصور الهائلة في مصر أو بابل أو الهند لبدت ضئيلة شميخة الذوق .. كان القصر مكوناً من عدة أبنية منفصلة : بناء للصناع ، وقاعة للاجتماعات ، وهو للعرش ، والمحكمة العليا ، و «حرم ملك» كبير يكفي لسكنى المئات من نسائه . وكان هناك أيضاً معبد ، وهو بناء صغير طوله مائة قدم وعرضه ثلاثون قدما ، موضوع فيه «نابوت العهد» — هذا الصندوق الذي نحفظ فيه التوراة ولا شك أن المعبد كان بالنسبة لسليمان مشروعاً أقل أهمية من القصر ، كان مقصورة دينية في بلاط الملك ، ولذا لم يستغرق بناؤه أكثر من نصف الوقت الذي استغرقه بناء القصر . ولكنه مع مرور الزمن ، وبعد الكهنة والانبياء الذين وفدوا عليه على طول حكم أسرة داود ، كان يتخذ في خواطر اليهود مكانة ، وكانت له من بعد ذكريات ، ربما لم يستطع شيء آخر على هذه الأرض أن يضمن مثل ما استطاع هو بقاء اسرائيل عليها ، مع أنه كان في حد ذاته أصغر من أي معبد يهودي في أمريكا الآن ، ومن كثير من كنائس الارياف المنتشرة في أنحاء العالم . بالرغم من هذا فانه أقوى بناء شيدته يد الانسان من حيث عمق أثره وقوته . وما يقوله لويس براون صحيح ، بل ربما كان دون الابعاد الحقيقية لسيطرة هذا الهيكل على نفوس اليهود وخيالهم ، بعد تدميره واندثاره . وحتى الآن اقترنت اورشليم به ، وتقديس لدى اليهود من أجله وإذا ذكر اسمها فالمراد هو أولاً وقبل كل شيء ، وما كتبه الكتاب والاحبار من شطحات خيالهم حول ذلك شيء تضيق عنه مئات المجلدات . بحيث كان كل اليهود في حاراتهم القنطرة وأسماعلم البالية ، على الثلج ، وفي الوحل ، يعيشون في هيكل اورشليم مع سطور التلمود ومع كتابات الاحبار ، وكانت صيغة المعايدة الدائرة على السنهم — وبخاصة في عيد الفصح — هي «السنة القادمة في اورشليم» وهو شعار استغلته الصهيونية ، وكهربت به أعصابهم ، وأعطته كل المعاني الحربية والعسكرية الممكنة . ولندكر نموذجاً واحداً من هذه الشطحات الكهنوتية اخترناها من كتاب التصوف اليهودي «زوهر» ٢ / ٢٢٢ : « عند خلق العالم ، ألقى

الله حجراً كريماً من عرشه العظيم في الفضاء المظلم ، فغطس فيه جزء من هذا الحجر وبرزت بقيته فوق السديم . وهذه البقية البارزة كمنقطة في هذا الفضاء اللانهائي بدأت تمتد في كل الاتجاهات عن يمين وشمال ، وأرسيت الدنيا عليها ، ولذلك يسمى هذا الحجر «حجر الأساس» ، وكان تكوين الأرض حوله على ثلاث مراحل: المرحلة الأولة عبارة عن منطقة مستديرة حول الحجر ، نورانية شفافة ، والثانية من حولها مصنوعة من مادة أقل شفافية ولكنها أكثر رقة من الأرض ، والثالثة أرض معتمدة ، يطوقها المحيط الذي يدور حول العالم . وهذه المناطق الثلاث ممثلة في الهيكل الذي في أورشليم : فالمنطقة النورانية ، وهي النقطة العظمى ، عبارة عن الهيكل ومدينة أورشليم ، والثانية، الأقل شفافية هي الأرض المقدسة «فلسطين» ، والثالثة المعتمدة هي بقية العالم حيث تسكن الأمم غير اليهودية من الكفار . أما المحيط الذي يدور بكل شيء فهو مملكة الجن التي تحيط بالعالم . ولم تر الدنيا قط شيئاً أجمل من ستائر تابوت العهد . وعندما أدخل تابوت العهد إلى الهيكل صاح بأية المزامير ١٤/١٣٢ : هذا مستقرى إلى الأبد وهنا سوف أقيم . وكان صوت الروح القدس يردد هذه الكلمات على مسامع إسرائيل . « ولولا الهيبة التي يجب اصطناعها أمام مقدسات الناس جميعاً تأدباً واحتراماً لمشاعرهم لعبرنا عن رأينا بصراحة في مثل هذه الشطحات ، وان كان لا يغيب عن البال ما يهدف إليه الراوية لهذا اللون من الأدب الشعبي من تأكيد العنصرية البغيضة التي اخترعها «شعب الله المختار» وكان أول من اصطلى بناها أيضاً ، ومن تأكيد البقاء الأبدي في «أورشليم» ، بينما المسكين قد عاش ناهياً غارقاً في «المنطقة المعتمدة» القريبة من «مملكة الجن» المحيطة بالأرض ... رحمه الله ..

وما كاد سليمان يلقي ربه حتى حدثت حرب أهلية بين الاسباط وانقسمت المملكة شطرين ، وأصبح الهيكل وأورشليم قبالة انصف العبرين فقط .

ثم تعرضت القدس مباشرة لهجوم الجيش المصري الفرعوني (حوالي سنة ٩٧٠ ق . م) . وهي تحت حكم «رجبعام بن سليمان» . وتوالت عليها بعد ذلك الهجمات المتلاحقة : من الادوميين في الأردن إلى العرب إلى الاراميين

إلى الاسرائيليين في مملكة الشمال ، عندما هاجم يهوآثر ملك اسرائيل أمصيا ملك أورشليم ويهوذا وهدم أسوارها وأخذ ما في الهيكل من الذهب والفضة والأواني ، ونهب القصر وأخذ بعض الرهائن وعاد إلى السامرة (الملوك الثاني ١٤/١٤) .

وتكرر الزحف المصرى على أورشليم في حكم الفرعون نخاو ، وكان ملك يهوذا يهو آحاز (حوالى ٦١٠ ق . م .) .

ثم انتعشت أورشليم في عهد الملك عزيا هو الذى حكم أكثر من نصف قرن من الزمان ، وكان مهمتاً بتحسينها فبنى حولها أبراجاً وحفر آباراً وأنشأ البساتين والحدائق (اخبار الايام الثاني ٢٦) . واستمر انشاء البوابات والتحصينات على عهد ابنه يوثام .

وتبلور الخطر الاشورى على القدس في عهد سنحاريب الذى كان معاصراً لحزقيا ملك يهوذا ، فأخذ هذا الأخير في زيادة التحصينات بالقدس وقام بدم آبار الماء التى في خارجها حتى لا ينتفع العدو بها وكذلك الجداول الجارية منها ، ودعم السور في المواضع المهتدة منه وحصن قلعة داود على جبل صهيون ، وقام بمشروع هندسى ناجح أجرى به مياه نهر جيحون الذى يجرى جنوباً خارج القدس تحت الأرض إلى داخل المدينة ، وأنشأ صهاريج للماء ، وهكذا استطاع أن يواجه الحصار الاشورى دون أن يضطر إلى الاذعان .

الحراب الأول ، والهيكل الثاني

كان يخنصر ملك بابل يحاول أن يسوى حساباً قديماً مع فراغة مصر ، ولكنه في كل مرة يجد عقبة ما في فلسطين تظهر له فجأة من قبل اليهود فيبوء بالفشل ، وأخيراً (سنة ٥٨٨ ق . م .) هاجم القدس بعد أن كان استولى على أهم اجزاء فلسطين ، ومنها غزة في أقصى الجنوب ، وكان ملك يهوذا في ذلك الوقت «صدقياهو» ، ولما سقطت القدس بعد مقاومة رهيبه أحرقتها الجيش البابلي وخربها ونهبها ، وأخذ معظم أهلها أسرى إلى العراق

حيث بقوا سبعين عاماً ، إلى ما بعد نجاح الامبراطور كورس ملك الفرس في احتلال العراق واستقاط الامبراطورية البابلية ، وقد لقي جيشه بطبيعة الحال كل التسهيلات اللازمة لمهمته من قبل اليهود المتورين المحتجزين في العراق ، فسمح على الثور بعودتهم إلى فلسطين وتأسيس «وطن قومي» تحت رعايته وحمايته داخل ملكه وسلطانه ، فعاد كثير منهم برئاسة يوشع بن يوصديق وزروبايل بن شلتايل وبعدهما بثمانية عشر عاماً جاء عزرا ونحميا ، الذي أخذ في إعادة بناء هيكل سليمان (يقول الرواة : بصورة أقل فخامة ، ولعل ذلك من فرط اعجابهم الخيالي بهيكل سليمان فقط) .

وفي سنة ٣٣٢ ق . م . احتل الاسكندر فلسطين وادخلت تحت الحكم اليوناني ، ولكن أحد أخبار اليهود وهو «شمعون بن حونيو» استطاع بدبلوماسيته أن يحوز رضا الاسكندر وأن يظفر منه بمزيد من العناية بتجميل القدس (التمود . يوما) ، وبعد موت الاسكندر استولى بطليموس الأول «سوتير» على اورشليم حوالي سنة ٣١٠ ق . م . ، وأخذ كثيراً من أهلها أسرى إلى الاسكندرية .

ثم زحف عليها ملك سوريا انطيوخوس السلوقي اليوناني سنة ٢٠٣ ، وعاد فاستردها منه القائد البطلمي «سكوباس» المصري سنة ١٩٩ . والظاهر أن اليهود في المدينة كانوا أميل إلى حكم السلوقيين ، وقد ساعدوا انطيوخوس على دخول القلعة ، كما يقول يوسفوس ، ومباغثة المصريين فيها . وبسبب ذلك خفف انطيوخوس الضرائب عن يهود القدس ، واهتم بعمارة الهيكل والمدينة وتدعيم حصن داود . ويصف اليوناني أرسطياس ، المعاصر لهذه الأحداث ، فخامة القدس بما يبين أنها كانت مدينة كبيرة لها أسوار وعابها ابراج ، والخدمة الدينية في الهيكل كانت على أرفع نظام ، وكان عدد السكان مائة وعشرين ألفاً . وتعود اليهود بعادات اليونان ، وتركوا الرب ، وظهرت فرقة «ياسون» وأخيه «ميتلاوس» ، وقالوا بأن منصب الخاخام الأكبر يجب أن يكون بالوراثة لا بالانتخاب وحدثت فتنة كبيرة ، انتهزها الحاكم السوري انطيوخوس ابيفانوس فزحف على اورشليم سنة ١٧٠ ق . م . ونهبها وذبح كثيراً من يهودها .

وبعد ذلك بعامين هجم قائده ابولونيوس على المدينة مرة أخرى فأكثر فيها من القتل والتخريب واقتحم الهيكل وأقام فيه تمثال انطيوخوس ، وبنى بجواره مسرحاً للتمثيل وأخذ معه رهائن من يهود القدس . فقام من أمراء المكابيين اليهود الحشمونيين «ميتياهو» ثائراً ضد اليونان هو وأولاده الخمسة ثم أتم يهوداً المكابي هذه الثورة بطرد اليونان من الهيكل ، وبن جزء كبير من المدينة سنة ١٦٥ ق . م . وواصل هذا الكفاح شمعون المكابي ، ففي سنة ١٤٣ طرد الحامية اليونانية من قلعة داود «صهيون» .

وعاد اليونان بقيادة انطيوخوس السابع (سيديتاس) في عهد يوحنا هيرقانوس المكابي فاتقى هذا الأخير شره بتقديم قوالب من الذهب استخرجها من قبر داود ، يقول يوسفوس ان وزنها كان ٧٥ طناً ، ثم حدث نزاع على العرش بين هيرقانوس وأخيه أرسطوبولوس في داخل القدس .

أورشليم وروما

أثناء هذه الفترة زحف القيصر الروماني «بومبي» على فلسطين واحتلها سنة ٦٦ ق . م . وقتل من اليهود في القدس وحدها ١٢,٠٠٠ ، بينما كان اليهود يخربون كل شيء بأيديهم ويحرقون المدينة كلها بالنيران حتى لا ينتفع بها العدو .

وبعد مدة وجيزة كثرت الاضطرابات في أورشليم ، فزحف عليها حاكم سوريا الروماني «لوقيانوس كراسوس» ، ودخل الهيكل ونهبه ، وكان ما فيه من الذهب والفضة والالنية الثمينة يقدر بنحو خمسين طناً .

وزار يوليوس قيصر فلسطين ، فأذن لليهود في بناء الأسوار التي كان بعضها قد تهدم .

وفي هذه الاثناء كان هؤلاء «الأمراء» من أواخر المكابيين ما يزالون يتنازعون على السلطة ، أو ما بقي لهم منها ، في أورشليم ، وهي سلطة أخذ الزكاة من اليهود ، وادارة القضاء بينهم ، وتنفيذ الأحكام الشرعية فيهم ... أمانة كاريكاتورية تأخذ من اليهود الزكاة بيد وتصلبهم باليد الأخرى .

وانتهز هيرودس الادومي فرصة هذه المنازعات وزحف على المدينة سنة ٣٧ ق . م . يساعده القائد الروماني سوسيويس ، فحاصرها وصبا عليها قذائف المنجنيق واقتحمها وقاما فيها بمذبحة رهيبة .

وافق القيصر الروماني أغسطس على تعيين هيرودس على القدس «وكل بلاد اليهودية» أى النصف الجنوبي من فلسطين . فاهتم باعادة تخطيط المدينة وتدعيم اسوارها ، وتزويدها بأبراج حصينة للحراسة ، لاسيما في النقطة الضعيفة استراتيجياً من المدينة وهي الغرب والشمال الغربي حيث أحياء القدس الحديثة الآن . فأقام في هذه الجهة برجاً سماه برج «هيبيكوس» باسم واحد من اصدقائه قتل وهو يحارب في صفوفه في احدى المعارك ، وهذا البرج هو الذى يسمى خطأ الآن «برج داود» . وفي أقصى الزاوية الشمالية الغربية من السور بنى حصناً في موضع حصن «البيرة» الذى اقيم بعد عودة اليهود من السبي ، وكان قائماً في عهد المكابيين ثم تهدم ، وشماه هيرودس حسن «انطونيا» على اسم صديقه وحاميه انطونيو (صاحب كليوباترا) - أما تسمية «البيرة» فهي فارسية معناها القلعة ، ولم تعرفها اللغة العبرية الا تحت حكم الفرس ، وكان هذا الحصن مربعاً طول ضلعه نحو تسعين متراً ، وفي داخله قصر عليه سور مربع آخر ، تقوم عليه أربعة أبراج ، ثلاثة منها ارتفاعها خمسون ذراعاً ، والرابع ارتفاعه سبعون ذراعاً ، وهو البرج الشمالى الشرقى أقرب هذه الابراج إلى الهيكل ، ومن أعلى هذا البرج كان جنود الاحتلال الروماني يراقبون ما يجرى داخل معبد اليهود ، الذى حظى من هيرودس أيضاً بالعناية فأعاد بناءه وزخرفته . وفي الجهة الجنوبية الشرقية استقر الملك اليهود «مونوباز» وأمه اليهودة أيضاً «هيلانه» ، وكانا يحكان قبل تهودهما مقاطعة أديابين في بلاد الاكراد ، شمال شرق سوريا ثم تهودا ولجآ إلى أورشليم فبنيا إلى الجنوب من جبل صهيون قصوراً ومقابر في غاية الاتقان .

كان اليهود في أورشليم لا يكفون عن مناوشة الحامية الرومانية المعسكرة في قلعة انطونيا . فأمر «أجريبيا الأول» الموظفين الرومان بأحكام الرقابة على اليهود والتشدد في معاملتهم ، ووصل الحقد إلى أقصاه بين الطرفين أثناء

دعوة السيد المسيح ، والفتنة التي أحدثها الكهنوت اليهودي حينئذ ، وكان القيصر كليوديوس قد أمر - نكاية في الهيسود - بوضع تمثال لنفسه في الهيكل ، بقي في مكانه إلى أن مات هذا القيصر مسموماً سنة ٥٤ بعد ميلاد المسيح .

الحراب الثاني - والاخير - لاورشليم

دأب اليهود على خلق المشاكل للرومان ، مشاكل ومضايقات صغيرة كانت متلاحقة ومفاجئة ، فقرر الامبراطور الروماني فسبازيان القضاء عليهم ، وحل المشكلة كلها هذا الحل الجذري الدامي ، فأرسل ابنه تيتوس على رأس جيش كبير للقيام بهذه المهمة ، وبعد مؤامرات كثيرة قام بها اليهود واستعملوا فيها كل شيء ، حتى النساء ، في تلبين عريكة تيتوس دون جدوى ، تم تخريب اورشليم في ٨ ديسمبر سنة ٧٠ ميلادية واجلاء جميع اليهود عنها ، وهو «السبي الثاني» الذي ظلوا فيه من هذا التاريخ إلى سنة ١٩٤٨ عندما أعلن حايم وايزمان قيام «اسرائيل» .

ولكن بالرغم من أن تيتوس قد بذل أقصى الجهد في جعل عودة اليهود إلى سكنى القدس أمراً مستحيلاً ، فان من بقي منهم في فلسطين لم يكف عن التآمر ضد الرومان .

اياها كاييتولينا ... لا اورشليم

وفي القرن الثاني الميلادي ، سنة ١٣٦ ، قام «بركوكبا» ، أحد نماذج الصهيونية القديمة ، بثورة مسلحة ضد الرومان ، وسجل عليهم ، رغم جيشهم الامبراطوري الجرار - انتصارات براقية في البداية ، ولكن الامبراطور الروماني ايليوس هديران قام آخر الأمر باتمام ما بدأه تيتوس ، فحاصر ما كان بقي من القدس ، وهدم كل شيء في المدينة ، ولم يترك فيها يهودياً واحداً ، وجاء إلى مكان الهيكل فأقام عليه معبداً لجوبيتر كبير آلهة الرومان ، ووضع فيه تمثالا لهذا الاله كالتمثال القائم في معبد الكاييتول ، وقرر تغيير كل شيء في هذه المدينة ، حتى اسمها ، الذي أصبح مكوناً من

اتمه هم واسم الكايتول معبد جوييتير الكبير ، فسماها «ايليا كايبتولينا» ومنع اليهود من دخولها ، وجعل الموت عقوبة من يقدم منهم على ذلك ، ثم منح لهم بالحجىء اليها يوماً واحداً فى السنة ، والوقوف على جدار ، بقى قائماً من السور فى الجزء الغربى من المدينة ، وهو الذى يسمى «حائط المبكى» ويسميه اليهود «الجدار الغربى» وظل حظر السكنى بالقدس قائماً على اليهود قرونًا طويلاً . فقد ذكر ذلك يوزيوس ، المؤرخ المسيحى الذى زار «ايليا» - القدس - سنة ١٣٢ ميلادية ، كما ذكره اليهود انفسهم فى تفاسيرهم القديمة «المدراتس» (سفر الجامعة - قوهيلت ربا) .

دموع التماسيح على حائط المبكى

كان الاتقياء الطيبون من اليهود ، وفيهم اتقياء طيبون ، يقفون على «الجدار الغربى» باكين ، طالبين الرحمة من الله ، والمغفرة لذنوبهم وذنوب أسلافهم ، التى بسببها دمر الله ملكهم مرتين : على يد بختنصر البابلى وتيتوس الرومانى . أما كهنة السياسة الصهيونية عبر العصور فجعلوا هذا الحائط «مسارُحاً» ، يتخذونه منطلقاً لكل دعوة عنصرية جديدة . ولذلك زعم بعضهم أنه بقية من سور داود ، وقال آخرون أنه جزء من حائط سليمان ونسبه البعض إلى المكابين أو هيرودس ، وقد قام الاثريون الاسرائيليون بعد حرب يونيو ١٩٦٧ بعمل حفائر فى أساس الحائط ، فكان أقصى ما عثروا عليه ، فى الحجارة التى تحت الأرض ، آيتين من سفر النبى اشعيا محفورتين بخط يجعل نسبة هذه الحجارة لدواد أو سليمان مستحيلة . ويرجع العثور على هذا النص إلى الشهور السابقة لاحتراق المسجد الأقصى ، ولأن الكشف لم يكن دليلاً من الناحية السياسية كما يريد الصهاينة ، فقد وضعوه فى «قبر السكوت» كعادتهم فى كثير مما لا يريدون أن يعرفه العالم عنهم .

ولكن الذى لا شك فيه هو أن هذا الحائط جزء من سور المعبد اليهودى وقد يرجع على أكثر تقدير إلى أيام هيرودس ، أى إلى فترة ميلاد المسيح . وتقضى اليه طريق طولها نحو ثلاثين متراً وعرضها أربعة أمتار (وقد نسف اليهود ذلك وعاثوا فيه منذ يونيو ١٩٦٧) .

وارتفاع الحائط ثمانية عشر متراً عن سطح الأرض ، السنة أمتار الأولى منها مبنية بحجارة مستطيلة ضخمة مثل التي يعثر عليها في أساسات السور . يضاف إليها من فوق ١٤ سطرّاً من حجارة أصغر يبدو أنها قد عثي بها الحائط ابتداء من عصر متأخر جداً هو القرن الثاني عشر الميلادي وما بعده وأساس السور المطمور تحت سطح الأرض عبارة عن ١٩ سطرّاً من الحجارة المستطيلة الضخمة ، ويمكن رؤية جزء من هذا الأساس من الكهف الملاصق للحائط من جهة الشمال ، أما بقية السور من هذه الجهة الغربية فقد اندثرت الا بعض التوائت التي تبرز من مسافة لأخرى ، وهناك ١٢ متراً من الضلع الجنوبي للسور ما تزال بارزة ، وهي بقية العقد المقوس الذي كانت فوقه القنطرة من جبل صهيون إلى الهيكل ، والتقاليد اليهودية لا ترى البكاء سنة عند هذا الجزء ، مما يؤكد أن الأصل في هذا البكاء انما كان على معبد لا مملكة ، وطلباً للمغفرة من الله لا للعون من الولايات المتحدة - ومع الزمن غلبت دموع التماسيح دموع الاتقياء .

وإذا كان المبكى أثراً يهودياً يرويهِ اليهود بدموعهم ، فهناك قبر في الجنوب لحبر من أحبار اليهود الكبار هو الربى كلونيموس التلمودي يرحمه اليهود بالحجارة تنفيذاً لوصيته . وتقول أسطوره : ان طفلاً مسيحياً وجد قتيلاً ، وآتهم المسيحيون اليهود بقتله لأخذ دمه والاستعانة به في طقوس خبز الفصح حسب الاشاعة التي تهمهم بعجن هذا الخبز بدم انسان غير يهودي فجاء الحاخام كلونيموس وقرأ ودعا على الجثة الهامدة ، فبعث الصبي حيا باذن الله ، ونطق باسم قاتله واذا به مسيحي ، فندم كلونيموس على معجزته التي قام بها لمن ليسوا أهلاً لها في نظره ، وكتب في وصيته أنه يريد أن يعاقب نفسه على ذلك بأن يمنع من وضع شاهد باسمه على قبره ، وأن يرحمه من يمر بقبره لمدة مائة سنة ، واكراماً للرجل فبعض الناس يرحمه إلى اليوم .

القدس الشريف

ظلت «إيليا كايبوليا» محرمة على اليهود الاصحابة نهار في السنة يذرفون فيها الدموع على حائط المبكى حتى ظهر الاسلام ، وأستولت جيوش عمر ابن الخطاب على القدس سنة ٦٣٧ ميلادية بقيادة خالد بن الوليد وأبى عبيدة عامر بن الجراح . وفي سنة ٦٣٧ ، والجيش العربي يطوف المدينة ولايدخلها في انتظار قدوم الخليفة ، كان زعماء المسيحيين في داخل المدينة ينتظرون أيضاً خليفة المسلمين . ومعهم مشروع معاهدة تقضى بكل ما يريد العرب بشرط الابقاء على الحرية الدينية للمسيحيين ، واحترام المشاهد المسيحية المقدسة في البلد . واستمرار القرار الروماني القديم بمنع اليهود من النزول بالمدينة . وقبل عمر الشروط كلها الا الشرط الأخير ، معتذراً بأن القرآن قد حدد ما لأهل الكتاب وما عليهم ، وليس فيه شيء يسمح بهذا ، ولكنه تعهد لمسيحيي القدس ألا يدخل أحد من اليهود إلى مقدساتهم أو يسكن في حاراتهم . ثم أراد أن يؤمن للحامية العربية مكاناً تعسكر فيه بالقدس فوجد أن سفح «صهيون» قد صار قلناً جداً — وقد أشرنا إلى أن وادي القمامات كان يلاصقه منذ أقدم العصور — فصعد إلى الهضبة التي كان اليهود يسمونها جبل «موريا» وأختط مسجداً بجانب الصخرة الشريفة ، التي كان النبي محمد ابان حياته قد أسرى به اليها ، فضلى عندها ، ودعا القرآن المكان باسم «المسجد الأقصى» ، ومن ثم عرج به في القصة المعروفة المذكورة في القرآن .

لم يجزء اليهود ، طوال أيام الخلفاء الراشدين وأوائل خلفاء الدولة الأموية ، على الاسديطان بالقدس ، ثم سمح لهم بذلك في أيام الخليفة عبد الملك ابن مروان . الذي بنى المسجد الجامع وبنى قبة الصخرة عام سنة ٦٨٨ ، وكان في فناء الحرم على أيامه عشرة من اليهود يقومون بأعمال الكنس والنظافة نظير اعفائهم من الجزية ، ذكر ذلك تاريخ مجير الدين المخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس .

وفي سنة ٧٠٥ تولى سليمان بن عبد الملك بن مروان ، فترك في دمشق أخاه الأصغر وحضر إلى القدس وهو ينوي أن يجعلها عاصمة للخلافة الإسلامية ثم عدل ، وذكر مجير الدين في تاريخه أن المكلفين على عهده بانارة المسجد الأقصى كانوا من الخدم اليهود ، إلى أن تولى الخليفة عمر بن عبد العزيز (٧١٠ - ٧٢٠) ففصل اليهود من هذه الأعمال وجعل خدم الحرم جميعاً من المسلمين . .

وفي سنة ٩٦٩ . سقطت سوريا وفلسطين تحت حكم الخلافة الفاطمية بالقاهرة ، وأستولوا على القدس في عهد المعز لدين الله الذي كان مشهوراً بعطفه الشديد على الأقليات من أهل الكتاب وخصوصاً اليهود . فأزدهرت في أيامه الطائفة اليهودية ، ولكن حفيده الحاكم بأمر الله (سنة ١٠١٠) ، قسا على المسيحيين واليهود وهدم بعض الأبنية المعظمة عندهم ، حتى أنه أراد ذات مرة أن يهدم كنيسة القيامة كما يروى مجير الدين في كتابه في التاريخ .

وفي أواخر يولييه سنة ١٠٩٩ دخل الصليبيون القدس لأول مرة بقيادة الفرنسي «جوفروا» وأبادوا جميع المسلمين واليهود في المدينة المقدسة وأحرقوا ديارهم ومقدساتهم ، وحرموا عليهم دخولها ، وان كان الرحالة اليهودي الاندلسي «بنيامين التطيلي» يذكر في رحلته التي زار فيها القدس سنة ١١٧٠ أنه وجد فيها قليلاً من اليهود يقيمون تحت «برج داود» ويشغلون صباغين بصريح من الحاكم الصليبي لقاء مال يدفعونه له .

ويذكر رحالة يهودي آخر من الأندلس أيضاً هو هودا الحريري الأديب أنه زار القدس بعد أن استردها صلاح الدين الأيوبي من الصليبيين (يوم الجمعة ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧) فسمع عنه أنه يكرم اليهود ويحسن معاملتهم وبشجعهم على الإقامة فيها .

وظل الأمر يتأرجح عنفاً وتساخاً مع اليهود بين الصليبيين والمسلمين بحسب الظروف إلى أن خلصت فلسطين للماليك ، وكان اليهود قد كثروا

فى القدس ، وبدأت بينهم تنظيمات سرية تفرض عليهم الاتاوات لصالح الطائفة ، وتوقع العقوبة - سرّاً - بمن يرفض دفع الاتاوة .

حدث مرة فى حكم السلطان الملك الأشرف قايتباى ، من المماليك البرجية (١٤٦٨ - ١٤٩٦) أن أحد اليهود رفض دفع هذه الاتاوة ، فوقع تحت التهديد والارهاب ، حتى أنه أثر الدخول فى الاسلام ، واغتاضت أمه من قسوة زعماء الطائفة عليه ، فأسلمت هى كذلك ، وأقفت بيتها الواقع فى الحى اليهودى ليكون مسجداً للمسلمين ، وكان مجاوراً للمعبد . فلجأ المسلمون فى المدينة سنة ١٤٧٥ إلى المحكمة الشرعية بالقدس يطلبون اجلاء اليهود من مجاورة المسجد الجديد وازالة معبدهم . وأصدرت المحكمة حكمها فى صالحهم ، ولكى تبين أن الحكم لا بد أن يصدق عليه من المحكمة العليا فى القاهرة . وفى انتظار التصديق قام المسلمون فعلا ببعض أعمال الهدم والازالة . ولكن السلطات العليا بالقاهرة نقضت حكم المحكمة الشرعية بالقدس ، وأفتت بأنه لا ضير بأن يقوم مسجد للاسلام فى حارة اليهود وبجوار معبدهم . وأمرت باعادة بناء ما تهدم على نفقة المسلمين ، ذكر هذا أحد مشاهير أحبار اليهود الذين عاصروا تلك الأحداث ، وهو الربى عوبديا دى برطينورو فى رسالة له من القدس ، وكان معظم اليهود يسكنون فى حى خاص بهم على جبل صهيون بعزل عن المسجد الأقصى وكنيسة القيامة .

فى نفس هذا القرن الخامس عشر الميلادى كان العرب قد طردوا من الأندلس ، وكان الاسلام قد دخل أوروبا من الشرق مع السلطان العثمانى محمد الثانى - الفاتح - الذى استولى على القسطنطينية ، ووضع بذلك نهاية للامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) .

وطرد العرب من الأندلس جر معه جالية يهودية ضخمة كانت تعيش آمنة فى كنفهم ، وهى التى قامت بخدمة اللغة العبرية والدين الاسرائيلى

والحفاظ عليهما وتعميق دراستهما ووفد من هذه الجالية بجمهور كبير
الاستقرار في القدس ، كما بدأ يفد من بيزنطة أيضاً عدد من اليهود لا يستهان به .

وفي سنة ١٥١٦ انتهى حكم المماليك عندما سقطت القدس في يد الجيوش
التركي في عهد السلطان سليم الأول العثماني ومن بعدها مصر أيضاً وبعد ذلك
مباشرة كان السلطان سليمان القانوني العثماني ١٥٢٠ - ١٥٦٦ هو الذي يحكم
الامبراطورية الاسلامية الشاسعة وقد أمر باعادة بناء أسوار القدس الشريف
على النحو الذي نعرفه الآن .

وهذا السور الحالى سبعة أبواب :

١ - باب الخليل غرباً ، وهو الذى يسمونه أيضاً باب يافا ، وكان
يسمى قديماً باب ابراهيم .

٢ - باب النبي داود جنوباً ، واسمه باب صهيون ، وهو على جبل
صهيون ملاصق لقبور ملوك آل داود .

٣ - باب المغاربة جنوباً من منخفض الجبانة «التربوبويون» ويسمى
أيضاً الباب الصغير لصغر حجمه نسبياً ، ومن الأثريين من يزعم أنه باب
القمامة القديم ، والراجح أن باب القمامة كان إلى الجنوب أكثر ، في أسفل
الجبل ومن هذا الباب تخرج جنازات الموتى لتدفن على جبل الزيتون .

٤ - باب السباع شرقاً ، والعرب يسمونه باب سباط والظاهر أن
الكلمة تحريف يهوشا فاط واليهود كانوا يسمونه قديماً باب «يهوشا فاط»
لأنه يطل على الوادى المسمى بهذا الاسم .

٥ - باب الزاهرة ، شمالاً ، وهو باب هيروودس ، وربما كان في موضع
«باب ساحة الجيش» القديم .

٦ - باب العمود ، في الشمال الغربي ، ويسمونه باب دمشق ، واليهود
تسميه باب شكيم «نابلس» .

٧ - الباب الجديد ، غربي باب العمود ، ويسمى باب عبد الحميد وهو أقرب الأبواب إلى كنيسة القيامة .

هذا عدا أبواب وبوابات داخل القدس نفسها مثل «باب حطة» الذي يصل إليه الداخل إلى القدس من باب الزاهرة . وباب السلسلة القريب من المسجد الأقصى .

وبعد فهذه جولة في تاريخ القدس تتبعنا فيها اليهود خاصة ، فوجدنا أن المدينة كانت مقدسة قبل داود بألف سنة ، من أيام الملك الفلسطيني ملكيصدق ، لدرجة أن سيدنا ابراهيم التمس منه الطعام والشراب ، وأن يباركه ببركة الله العلي ، ووجدنا أن فترة أواخر حكم داود وحكم سليمان وهي لا تعدو كلها ثلاثا وسبعين سنة : ٣٣ لدواد ، ٤٠ لسليمان هي الفترة الوحيدة التي كانت المدينة والهيكل فيها مركزاً وعاصمة لليهود بقوة السلاح أولاً وبالمسالمة والدبلوماسية ثانياً ، ووجدنا أنه بمجرد موت سليمان تقلصت سلطة القدس بأكثر من النصف ، إذ كانت دولة اسرائيل في الشمال لا تعترف لا بدواد ولا بسليمان ولا خلفائهما ، لا في الدين ولا في السياسة . حتى جاء الآشوريون والبابليون ووضعوا حداً لكل هذا ، ومنذ ذلك الوقت كانت أورشليم رمزاً ، ولم يكن وجود اليهود فيها وجوداً مستقلاً ، لا سياسياً ولا اقتصادياً ولا دولياً ، وإنما كانت لهم فيها زوايا ومعابد لطقوسهم ، وكان يأتي إليها حجاجهم كما يذهب المصري أو المغربي أو التركي للحج في مكة المكرمة . ووجدنا أن العرب عندما دخلوا القدس الشريف بعد الاسلام كانت المدينة خالية من اليهود منذ خمسمائة سنة أو أكثر ومن كل أثر سياسي أو ديني لهم الا «مسار جحا» الذي هو حائط المبكى ، وعلى مدى أكثر من ثلاثة عشر قرناً ، كانت تحت الادارة الاسلامية « مدينة الله » بحق يجد فيها المسلم والمسيحي واليهودي صفاء النفس والسكينة الروحانية اللازمة للتأمل والعبادة .

ألف سنة قبل داود ، وألف وخمسمائة سنة بعد دواود ، والقدس مدينة الله . بل داود نفسه لم يكن يسميها الامدينة الله ، واليهود يعرفون ذلك جيداً ، ويعرفون أن التلمود كان يعتبرها «مدينة مملوكة لله» ، ولذلك حرمت شريعته أن يمتلك فيها الانسان بيتاً أو أرضاً أو بستاناً ، أو أن يسكن أحداً في بيته بأجر ، ولكنهم عند اللزوم كثيراً مايسكتون جميع الأصوات حتى صوت داود وسليمان وأصوات الأنبياء ، وحتى صوت التلمود .

هيكل سليمان ... وهياكل أخرى

كيف كان الهيكل الذي بناه سليمان ؟ وكيف تم بناؤه ؟ هل بقي منه شيء غير تلك الشطحات الأدبية الاسطورية التي يغص بها الأدب اليهودي ، الديني منه والعلماني ؟ هل قامت على أنقاضه هياكل أخرى ؟ .

أسئلة هامة تستوقفنا كما استوقفت الباحثين منذ أقدم العصور . وسنقف عندها علنا نجد بصيصاً من نور ، يساعدنا على تبين بعض المعالم ، وعلى تصور البناء في هيئته الواقعية البعيدة عن تخيلات الحنين اليهودي الخالم ، وعن التلخيص العابر الخاطف الذي ذكرنا مثالا له من كتابة اليهودي الأمريكي المعاصر «لويس براون» .

جاء في الكتاب المقدس أن داود كان يريد أن يبني هيكلًا للرب في أورشليم ، ولكن النبي «ناتان» أبلغه — من لدن الرب — بأن يترك هذا المشروع لابنه سليمان (صمويل الثاني ٧) . لماذا ؟ ان داود نفسه ليشرح سبب ذلك لابنه سليمان شرحاً له دلالاته ومعزاه ، حتى في العصر الحديث . وليسمع كهنة الصهيونية التوسعية في فلسطين الآن (اخبار الايام الأول ٢٢) : «وقال داود لسليمان يا بني ، كان في خاطري أن أبني بيتاً لاسم الرب الهى ، فكان إلى كلام الرب قائلاً : قد سفكت دماً كثيراً ، وقمت بحروب كبيرة فلن تبني بيتاً لاسمى ، لأنك سفكت دماء كثيرة أمانى على الأرض . وها هو ذا ابن يولد لك ، يكون رجلاً سلم ، أسلمه من جميع اعدائه الذين من حوله ، إذ سيكون اسمه سليمان ، وسأعطى سلاماً وهدوءاً ابني اسرائيل في أيامه وهو يبني لاسمى بيتاً» .

ومع ذلك فان داود أراد ، قبل موته ، أن يسجل معاونته الفعالة لابنه في اقامة الهيكل ، فأخذ يجهز المواد اللازمة للبناء ، وكان لليهود في عصره ما يزالون في بداوة بدائية ينذر فيهم من يعرف أصول حرقه أو صناعته

أو علم من علوم الدنيا ، وسترى ان الاعتماد على الفنين الأجانب كان الحل الوحيد الممكن أمام داود وسليمان حتى يرتفع هيكل الرب . جاء في سفر أخبار الايام الأول - ٢٢ : «وأمر داود بجمع الأجانب الذين في أرض اسرائيل ، فأتخذ نحّاتين لنحت حجارة مربعة لبناء بيت الله . وهياً داود حديداً كثيراً للمسامير لمصاريح الأبواب والأوصال ، ونحاساً كثيراً بلا وزن وخشب أرز لا يحصى ، لأن الصيغونيين والصوريين أتوا بخشب أرز كثير لداود » ثم أضاف داود وهو يخاطب ابنه في نفس هذا الاصحاح قائلاً : «وها أنا في مذلي قد جهزت لبيت الرب مائة ألف وزنة من الذهب وألف ألف وزنة من الفضة ومن النحاس والحديد مالا وزن له لكثرتي ، وجهزت أخشاباً وحجارة وأنت تزيد عليها . وعندك صناع كثيرون للعمل : نحّاتون ، ونقاشو حجر وخشب ، وكل أستاذ في كل حرفة» .

هذه القناطر المقنطرة من الذهب والفضة ، وهذا الخشب والحديد والنحاس الذي يفوق الوزن والحصر ، وهؤلاء العمال المهرة والأساتذة الخبراء في كل حرفة ، قد أورثهم داود لسليمان قبل أن يترك الدنيا ومن فيها ، فلننظر ماذا كان من أمر «بيت الرب» وبنائه .

أما مكان البناء فالاجماع منعقد ، بناء على عنعنات شفوية يقال انها متصلة متواترة على أنه الهضبة المسطحة التي تتوج جبل «موريا» - المكان الذي وجد فيه ابراهيم ، قبل سليمان بألف سنة ، الرجل الفلسطيني الأصلي «ملكيمصديق» ، ملك اورشليم ، يعبد الله العلي ، ويقوم بقرى الضيوف فيقدم لابراهيم الخبز والنيذ ، ثم يباركه «باسم الله العلي» أيضاً .

ظل هذا المكان فلسطينياً قحاً ، في أيدي البيوسيين ، رغم الضغط الاسرائيلي المتكرر حتى جاء داود ، فوجده ملكاً لفلاح فلسطيني بيوسي اسمه «أرونا» أو «أورنان» ، وقد جعله جرنياً ، فاشتراه منه ، والظاهر أن البيوسيين كانوا قد تعودوا من رذالات النهب والاعتصاب الاسرائيلي ما جعل «أرونا» يندحش عندما وجد داود يدفع له ثمن الجرن ، وكان قد

عرض عليه - اتقاء لشره - أن يأخذه بلا مقابل ، «فقال الملك لارونا : لا ، بل اشترى منك بثمن ، فلا أحرق القرابين للرب الهى مجاناً» . (صمويل الثاني ٢٤) .

أما عدد الصناع الذين اجتمعوا فى أورشليم لينفذوا لسايمان المشروع الذى أوصى به أبوه داود فضخم جداً يزيد على مائة وخمسين ألف عامل ، والهيكل بناء صغير حسب أوصافه التى وردت الينا (طوله ٣٢ متراً ، وعرضه ١١ متراً وارتفاعه ١٦٧ متراً بالتقريب) مما يدعوننا إلى التساؤل : هل كانت كل مواد البناء التى أعدها داود ، وهذا العدد الضخم من العمال والفنيين مخصصه للهيكل وحده ، أم أن الأمر على ما يذكر «لويس براون» من أن الهيكل لم يظفر من ذلك الا بالقدر الأقل بينما الجانب الأكبر قد خصص لمبان أخرى أقل اتصالاً بتمجيد «الرب» ، منها القصر الملكى لسليمان ، وقصر زوجته ابنة فرعون ، والصروح البديعة ، والقبيلات الانيقة ، التى أعدها لنسائه الكثيرات جداً ، والأبنية الحكومية المختلفة ، وحتى المعابد الوثنية التى اقيمت خصيصاً لمن رفضن اليهود من النساء الاجنبيات اللاتى أحبهن سليمان (الملوك الأول ١١) .

مهما يكن من شىء فان العمال الذين جاءوا لتنفيذ المشروع كان معظمهم من الأجانب كما قلنا ، وينقسمون حسب ما جاء فى الاصحاح الخامس من سفر الملوك الأول إلى الفئات الآتية :

١ - ٣٠,٠٠٠ عامل لقطع الأخشاب يكونون ثلاث ترحيلات كل منها عشرة آلاف عامل ، تذهب إلى لبنان فتعمل شهراً ثم تعود إلى فلسطين فتمكث شهرين هما مدة الترحيلتين الأخرين ، بحيث تعمل كل واحدة من الترحيل الثلاث أربعة أشهر على أربع فترات فى السنة . وكان الخشب المقطوع يأتى من لبنان مجزأً إلى يافا ، والمذكور منه نوعان هما الأرز والسرو ، وورد فى سفر اخبار الايام الثانى ٨/٢ اسم غامض لنوع ثالث ، ترجمه المترجمون بالصندل ، ومعروف أن الصندل لا ينبت فى لبنان ، ولعل المقصود بالكلمة

العبرية - وهى من غريب اللغة - خشب الساج ، وهو خشب شجر يميل إلى الحمرة ويستعمل فى التجارة ، (وقد اعتمدنا فى هذا التصحيح على المعجم العبرى العربى «جامع الألفاظ» تأليف أبى سليمان داود بن ابراهيم القاسى الذى يرجح إلى حوالى سنة ٩٥٠ م) .

٢ - ٧٠,٠٠٠ جمال

٣ - ٨٠,٠٠٠ حجار ، يهبطون حجارة البناء فى «مخاجر سليمان» فى الطرف الشمالى من جبل الزيتون ، إلى أقصى الشرق من مدينة القدس .

٤ - ٣,٣٠٠ رؤساء تشغيل (عمال فنيون ، «اسطوانات» ، ملاحظون) وعددهم فى سفر أخبار الأيام الثانى الاصحاح الثانى ، مختلف إذ هو ٣,٦٠٠

٥ - ٥٥٠ بناءون من صور وجيبيل ، وهما المدينتان الفينيقيتان المشهورتان فى العصور القديمة باتقان بناء الحصون والقلاع .

وفى ربيع السنة الرابعة من جلوس سليمان على العرش وضع الحجر الأساسى للمشروع بعد خمسمائة سنة من خروج بنى اسرائيل من مصر مع موسى ، وتم البناء بعد سبع سنين ، فى خريف السنة الحادية عشرة من ملك سليمان أيضاً .

يقول المؤرخ اليهودى اليونانى يوسفوس (تاريخ اليهود ، الجزء الثامن ، الفصل الثالث) : ان سليمان قد وصل بأساس الهيكل إلى عمق سميق ، وكان هذا الأساس يتكون من مكعبات من حجر شديد الصلابة ، يمكن أن يتحمل بعد ارسائه فى أعماق الأرض كل ثقل المبنى القائم عليه ، والذى يزيد من ثقله كل التصميم الزخرفى الذى أعده له سليمان ، وهو تصميم يزن مثل وزن الهيكل نفسه . وكانت حجارة الأساس هذه بيضاء ، وكان طول الأساس ستين ذراعاً (٣١,٥ متر) وعرضه عشرين ذراعاً (١٠,٥) ، وهذه هى أبعاد الهيكل الظاهر فوق سطح الأرض حسب رواية الكتاب المقدس ،

أما عمق الأساس فكان ستين ذراعاً أيضاً (٣١,٥ متر) ومفهوم كلام يوسفوس أن الكتلة المحددة بهذه الأبعاد كانت كلها مصمته ، مملوءة بالمكعبات الحجرية الضخمة ، ولم تكن مجرد «سياج» يحيط بالأرض .

ويرجح كثير من الاثريين وفي مقدمتهم الأثرى الفرنسى «دى سولسى» فى كتابه «تاريخ الفن اليهودى» أن الهيكل الذى بناه سليمان كان فى داخل سور يحيط بكل جبل الهيكل ، بدليل أن الهيكل الذى بناه اليهود بعد عودتهم من السبي البابلى فى نفس المكان ، وبعد سليمان بنحو خمسمائة سنة أخرى ، كان يحيط به سور أيضاً ، وكذلك الهيكل الذى عمره هيرودس بعد ذلك بخمسة سنة أخرى ، ثم الحرم الاسلامى الشريف الذى قام أخيراً ، فى نفس المنطقة التى كان «ملكىصدق» يدعو فيها باسم الله العلى فى زمن ابراهيم. ويبدو أن السور الذى كان يحيط بمنطقة الهيكل على أيام سليمان ، كان مربعاً طول ضاعه مائة وثلاثون متراً (فتكون مساحة ما يحيط به السور نحو ثمانية أفدنة الاربعة) . وبهذه المناسبة يذكر الأثرى الفرنسى «دى سولسى» مقاييس الحرم الاسلامى الشريف فى نفس المنطقة وفى العصر الحديث كما كما قاسها هو بنفسه ، وهى : الضلع الشرقى لسور الحرم وطوله ٣٨٤ متراً ، والضلع الجنوبى طوله ٢٢٥ متراً ، ثم يمتد الضلع الغربى بزاوية منفرجة وفى خط غير مستقيم ، بحيث يكون الضلع الشمالى من السور أطول بكثير من مقابله الجنوبى . وينبئ على ما ذكره «دى سولسى» أن تكون مساحة الحرم الشريف أكثر بكثير من ضعف مساحة جبل الهيكل داخل أسوار سليمان ، أو نحماً ، أو هيرودس .

هناك أيضاً أمر يستحق الانتباه ، وهو أن الحرم الاسلامى الشريف مستطيل ، واتجاهه من الشمال إلى الجنوب (فى اتجاه القبلة بمكة المكرمة) ، أما معبد سليمان فهو مستطيل لكن اتجاهه من الغرب إلى الشرق (نحو الشمس) وهو الاتجاه العام فى المعابد القديمة فى بابل أو مصر أو غيرهما من أقطار الشرق الأدنى والأوسط . واذن فلا يمكن التسليم بسداجة برأى من يدعون أن الحرم يقوم تماماً على ما كان سابقاً يسمى هيكل سليمان ، حتى لو سلمنا أن الهيكل

كان في هذا الركن بالذات من الجبل ، وهذا لا دليل عليه الا العنعات التي اتخذت في نفوس البعض منزلة مقدسة لتكرارها عبر الأجيال . والذي يستفاد من أوثق النصوص - هو أن الهيكل كان يتضمن التفاصيل الآتية :

١ - قدس الأقداس :

غرفة مكعبة أبعادها طولاً وعرضاً وارتفاعاً ١٠,٥ متر . وفيها ستار يقسمها قسمين ، ففي القسم الداخلى منها تابوت العهد ، وهو صندوق تحفظ فيه نسخة من توراة موسى مخطوطة على جلد أورف ، عن يمينها وشمالها تمثالان للكرويين يملآن بقيمة الفراغ . وأصل الكرويين في عقيدة اليهود أنهما من الملائكة ، وكان اثنان منهما يجرسان أبواب الجنة بعد أن طرد منها آدم وحواء ، ثم انتقلت القصة في الفولكلور الشرقى القديم ، في بابل وأشور وبلاد الحثيين وإيران وفينيقيا وغيرها فأصبح « الكروب » نوعاً من أبى الهول المخرج يجرس البناء الذى يوضع فيه ، وكان شكل التمثالين الحارسين يتخذ أسلوب الطراز الفنى للأمة والعصر ، وأغلب الظن أنه كان في هيكل سليمان أشبه بأمثاله في المعابد الفينيقية ، أى بأسلوب وسط بين الفن البابلى الأشورى في العراق والفن الفرعونى في مصر ، وربما كان في هيكل هيرودس قد نفذ بشكل أقرب إلى الفن التجريدى ، دون تفاصيل واقعية احتراماً لمنهى التوراة عن اتخاذ التماثيل المنحوتة ، فكان « الكروب » أو الملك الحارس يظهر بشكل كتلة وسطى يحف بها جناحان كبيران مديبان ، ولعله من هنا جاء الاعتقاد الشعبى عند الرومان في أن اليهود يعبدون في قدس الأقداس صنما على شكل رأس حمار ، إذ بدا لهم جسم « الكروب » بين الجناحين كرأس حمار بين الاذنين الطويلتين ، إذا وضعنا في الحسبان الفرق الشاسع بين ثقل الفن اليهودى وتحلفه ، وفخامة الفن الرومانى ودقته وتفوقه .

وأما النصف المفتوح من قدس الأقداس فيحتوى في الوسط على المذبح الذهبى للقرايين ، وإلى يساره منضدة تحمل الشمعدان السباعى الذى يضاء

في أثناء إقامة الطقوس - ويقال أنه كان في هيكل سليمان يضاء باستمرار لا ينطفئ أبداً ، وإلى يمين المذبح الذهبي منضدة لخبز التقدمة الذي يدخل في الطقوس اليهودية أيضاً .

٢ - انهو المقدس :

وهو المكان الخاص باجتماع الناس للعبادة واقامة الشعائر ، ويفصله عن قدس الأقداس باب ، وعلى جانبيه صفت مناخذ لوضع المسارج والشموع

٣ - قاعة المدخل :

وهي أول مكان يلي انباب ، وليس بها أثاث ديني معين ، وهي التي يليها من الخارج باب الهيكل ، وكان عليه عمودان أحدهما عن اليمين باسم «ياكين» أحد أحفاد يعقوب من سبط شمعون ، والثاني عن اليسار باسم «بوعز» ، أحد أبطال سبط يهوذا القديما . وعلى جانبي هذا الصحن الخارجى المكشوف الذى يقوم فيه العمودان أحواض لغسل الذبائح ، ومذبح في الهواء الطلق لتصعيد القرابين التي تحرق بالنار من هذه الذبائح ، يصعد اليه بسلم من عدة درجات وفي زاويتي المبنى سلمان يوصلان إلى الطوابق العليا اليها غرف الكهنة ومرافق الهيكل . وعن يسار المذبح الخارجى «بحر النحاس» وهو حوض نحاسى كبير يحمله اثنا عشر ثوراً من البرنز .

وهكذا يكون طول المبنى كله ٣١,٥ متراً وعرضه ١٠,٥ متراً ، وارتفاعه فيما عدا قدس الأقداس ١٥,٧٥ متراً ، بينما قدس الأقداس سقفه منخفض سبباً فارتفاعه كما قلنا ١٠,٥ متراً .

وكان من الداخل مغطى بالنقوش المنحوتة في الحجر والخشب من ازهار ونباتات وكرابين وكما يقول لويس براون ، لم يكن المعبد لا فخماً ولا ضخماً الا في أعين اليهود البسطاء الذين لم يكونوا قد وصلوا من الحضارة إلى درجة يطمحون معها في انجازات معارية كالتى كانت سائدة في نفس العصر في مصر الفرعونية أو بابل وأشور أو ايران أو الهند .

وقد بقي هذا الهيكل حتى خربه بختنصر فحما أثره محواً تماماً في القرن السادس قبل الميلاد . وربما دخلت حجارة من أنقاضه في أبنية متأخرة ، ظن بعض الباحثين ، بحسن نية أو للمغالطة وتشويه التاريخ ، أنها بقايا من انجازات سليمان .

الهيكل الثاني

كان هم العائدين من السبي البابلي الذي دام سبعين سنة أن يسطروا سلطانهم مرة أخرى على فلسطين ، وأن تقوم لهم دولة ، تحت وصاية «قورش» امبراطور ايران في القرن الخامس قبل الميلاد ، وأن تكون هذه الدولة قنطرة للتوسع العسكري الفارسي في الشرق الأوسط ، الذي انتهى باستيلاء قمبيز على مصر نفسها . وإذا كان السادة الفرس لم يعطوا اليهود «وطناً قومياً» الا بشروط معينة خلاصتها الولاء التام والتبعية المطلقة لسياستهم بخيرها وشرها فان اليهود ارادوا أن يعيدوا بناء اورشليم ، وتشيد هيكل سليمان ، حتى تكون هذه الواجهة أمام الناس تعمية على التبعية التي رضخوا لها صاغرين . ولقد حاولوا جاهدين أن يبنوا الهيكل الثاني على نفس المخطط الذي بنى عليه الهيكل الأول ، هيكل سليمان ، وانتهى البناء في عهد دارا الأول الفارسي .

كان الذين عادوا من السبي نحو أربعين ألف يهودي أو يزيدون قليلا ، و كان على رأسهم «يوشع بن يوصدق» و «زروبابل بن شلتايل» ، فبدأ ببناء مذبح للمحركات في الهواء الطلق على جبل الهيكل الذي كان وقتها خراباً وفي اليوم الأول من الشهر السابع من عودة اليهود من بابل إلى فلسطين كانت الطقوس تقام أمام هذا المذبح ، تم لما لحق «عزرا» و «نحميا» بالعائدين إلى فلسطين من اليهود بدأت أعمال البناء والنحسين وإقامة أسوار اورشليم تتخذ شكل الانجاز النشيط ، رغم بعض العقبات التي كانت تقيمها الحكومة الفارسية من حين لآخر ، ورغم مقاومة غير منظمة قام بها أمراء حوران وعمان والجزيرة العربية ، والفلسطينيين المتحركزين في اشدود (سفر نحميا الاصحاح الرابع وما بعده) .

وهذا الهيكل الثاني أيضاً انتهى أمره بالدمار التام بعد اقامته بخمسة قرون على يد تيتوس الروماني . يقول يوسفوس في كتابه «حرب اليهود» (الجزء الخامس . الفصل الرابع ، الفقرة الثالثة) : «وكان تيتوس كلما وجد الجنود الرومان قد فرغوا من قتل جميع الناس في المنطقة التي يسيطرون عليها ، أمرهم أن يخربوا أورشليم ومعبدها وأن يقلبوها ظهراً على عقب ، فيما عدا الابراج العالية التي كان يحرص على بقائها كشواهد على ما قام به من التدمير» . وهكذا احت معالم هذا الهيكل أيضاً الا بقايا نادرة ، مع ملاحظة أنه عند وصول تيتوس كان هيرودس . قبله بنحو قرن من الزمان ، قد أدخل تعديلات وتغييرات على الهيكل الثاني ، وعلى تخطيط المدينة نفسها ، كانت وحدها ، وبدون هدم أو تدمير ، كقيلة يجعل الوصول إلى التخطيط المعماري المبدئي للهيكل الثاني أمراً يكاد يكون مستحيلاً ، بالرغم من كل المحاولات التي أراد الباحثون اليهود أن يخرجوا منها بمخطط معاري دقيق مستمد من عنعنات التلمود ومنهم الأثرى اليهودي «أيزنشتاين» مثلاً . وأما ماجاء من جعل الصخرة الشريفة هي نواة قدس الأقداس فقد بينا أنشكوك القوية التي تحوم حول هذا ، وأولها ما ذكرناه من الاختلاف الشديد بين صخرة قدس الأقداس وصخرة المعراج النبوي المبارك من حيث الحجم والارتفاع عن الأرض .

وانطلاقاً من هذا المخطط التلمودي ، ومع الوصف الذي أورده المؤرخ يوسفوس وغيره ، نجدنا مضطرين إلى أن نسجل مرحلة ثالثة متطورة جداً من الهندسة الدينية اليهودية في حالة معبد أورشليم ابان ظهور المسيح .

هيكل هيرودس

وقد استفاد بعمق من العبارة اليونانية الرومانية ، وكادت تخفى منه للمامح الدالة على أصله اليهودي تماماً ، وهذا الهيكل هو الذى دمره تيتوس وشاه من الوجود سنة ٧٠ ميلادية ، وحائط المبكى كان على الأرجح جزءاً من جداره الغربى . واليهود يحرصون على تسميته حتى الآن « الجدار الغربى » .

هيكل جوبيتر كبير آلهة الرومان

على أثر الثورة التى قام بها فى أورشليم ضد الحكم الرومانى الزعيم اليهودى «بركوكبا» جاء الامبراطور هديران (فى أوائل القرن الثانى الميلادى) وأزال كل شىء يهودى فى أورشليم حتى اسم المدينة كما قلنا ، وعلى انقاض الهيكل بنى معبداً رومانياً لكبير الآلهة «جوبيتر» ، وأقام تمثالا لهذا الاله وآخر للآلهة فينوس ، وجعل هذا الصرح على جبل أورشليم أشبه بمعبد الكايتول الواقع على أحد جبال روما السبعة . ولذا أعطاه اسمه شخصياً «اليوس» واسم «الكايتول» . وحرّم استعمال اسم أورشليم وأحل محلها الاسم الرومانى الذى صنعه هو «ايليا كاييتولينا» - حتى أصبح اسم أورشليم لفظاً تاريخياً يطلق فقط على المدينة التى كانت فى هذا المكان على عهد الملوك والانبياء من بنى اسرائيل ، وظلت المدينة تسمى «ايليا» ولا يسكنها اليهود حتى الفتح العربى فى القرن السابع الميلادى ، حيث كانت المنطقة الوثنية التى أنشأها هديران قد خربت ، وجاء ثانى الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب فأنشأ مسجداً بسيطاً لجنده ، هو نواة الحرم الشريف والمسجد الأقصى ، بعد أن كان الاسلام قد كرس تلك البقعة المباركة ، بوحي قرآنى ، وبمعجزة الاسراء والمعراج المحيرة للاذهان .

تم ، بمون الله وتوفيقه ، طبع هذا الكتاب بالهيئة العامة
للكتب والاجهزة العلمية ، مطبعة جامعة الاسكندرية
في يوم الأحد ١٨ يناير ١٩٧٠

محمد يوسف البساطي
مدير المطبعة

